

جبريل تمسير نيان

سونچاتا

ملحمة شعب الماندينج

ترجمة: توحيدة على توفيق

مراجعة: أمينة رشيد

تقديم: حلمى شعراوى

1452

سلسلة
الإبداع
القصصى





mohamed khatab

سونچاتا

ملحمة شعب الماندينج

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

العدد: 1452

- سونجاتا
- جبريل تمسيرنيان
- توحيدة على توفيق
- أمينة رشيد
- حلمى شعراوى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:

SOUNDJATA

Ou L'epopee Mandingue

Par: D.T. Niane

SOUNDJATA OU L'ÉPOPÉE MANDINGUE ©

PRÉSENCE AFRICAINE, 1960

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

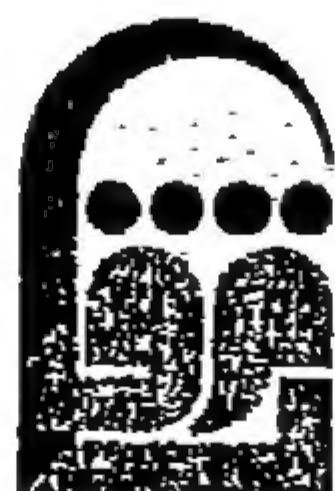
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 - 27354526. Fax: 27354554

سونچاتا (ملحمة شعب الماندينج)

تأليف: جبريل تمسير نيان
ترجمة: توحيدة على توفيق
مراجعة: أمينة رشيد
تقديم: حلمى شعراوى



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

نيان، جبريل تمسير

سونجاتا: ملحمة شعب الماندينج/ تأليف: جبريل تمسير نيان؛
ترجمة: توحيدة على توفيق، مراجعة: أمينة رشيد؛ تقديم: حلمي
شعراوى ط ١؛ القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠.

٢٣٦ ص ٢٠ سم.

١- الملاحم

أ- توفيق، توحيدة على (مترجم)

ب- رشيد، أمينة (مراجع)

ج- شعراوى، حلمي (مقدم)

د- العنوان

٨٠٨,٨١٣٢

رقم الإيداع: ٢٢٧٢٢ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى 2 - 750 - 479 - 977 - 978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

سونجاتا.. سيرة شعب الماندينج بين التاريخ والملحمة

7.....	دراسة بقلم: حلمى شعراوى
31	مقدمة المؤلف

النص

37	كلام الراوى مامادو كوياتييه
41	ملوك الماندينج الأوائل
51	المرأة العجل
71	الطفل الأسد
75	الطفولة
81	صحوة الأسد
99	المنفى
121	سوماؤرو كانتيه، الملك العراف
127.....	تاريخ
135	أوراق البواباب
143.....	العودة
157.....	أسماء الأبطال
163	نانا تريبان و بلا فاسيكيه
171	كرينا
193	الإمبراطورية

201.....	كوروكان فوجان، أو تقسيم العالم
215	نيانى
225	الماندينج الخالدة

سونجاتا.. سيرة شعب الماندينج

بين التاريخ والملحمة

دراسة: حلمى شعراوى

ملحمة سونجاتا كيتا Soundjata Keita "التي سجلها الأستاذ الغينى" جبريل تمسير نيان Djibril Tamsir Niane عن الجيلى (الراوى) "مامادو كوياتييه" فى قرية "جيليا كورو" بغينيا وبلغة "الماندينج" أو "المانينكى" عام ١٩٦٠، هى من أشهر النصوص الملحمية فى غرب أفريقيا، إذ تعبر، ملحميا عن التاريخ الشفاهى الشعبى لإمبراطورية "مالى"، التى قامت فى القرن الثالث عشر بزعامة "سونجاتا كيتا" والذى عُرف بأسماء "تارى ماغان جاتا" أو الملك الأسد وغيرها (١٢١٠-١٢٥٥). قامت "مالى الإمبراطورية" على مساحة تضم من بين دول غرب أفريقيا الحالية أو أجزاء كبيرة منها على الأقل، جمهوريات: مالى- السنغال- جامبيا- غينيا- غينيا بيساو- بوركينا فاسو- وشمال ساحل العاج وليبيريا- وجنوب موريتانيا، أو لنقل حسب انتشار ثقافة ولهجات "الماندى" أو الماندينج، ولا نقول عشائريهم، فى تلك المنطقة الواسعة، التى تضم الماندينج والبيمارا والولوف والسوننكى والسنغاي... وغيرهم. وكان العرب ومؤرخوهم يطلقون على شعوب هذه المنطقة كلها اسم للتكرور أو التوكلور،

اعترافا بوحديثها، وبألفة أبنائها في القاهرة في رواق التكرانة بالأزهر أو بولاق التكرور.. إلخ، كما يطلق معظم الأفارقة في المنطقة اسم "الوانجارا" على هذه المجموعة المنتشرة بالتجارة في أنحاء المنطقة.

وقد نشر الأستاذ "تيان" نصه بالفرنسية، ليصبح أقدم التسجيلات المنشورة وأكثرها انتشارا بحكم تتابع ترجمته حسب تصريح الأستاذ "تيان" نفسه (٢٠٠٩) إلى الإنجليزية بدءا من عام ١٩٦٥، ثم إلى البرتغالية والصينية واليابانية والألمانية والتشيكية، وغيرها بعد ذلك (وحتى ترجمتها الحالية إلى العربية). كما نشرت نصوص عن تسجيلات أخرى للملحمة (بالإنجليزية) عرف منها نص الراوى "فادي جي سيسوكو" للأستاذ جون وليام جونسون "باسم سونجارا" "ملحمة الماندى" - منشورات (جامعة إنديانا ١٩٨٦) كما اشتهر فيلم "كيثا: تراث الجريو" مسجلا نصا آخر، بل ويذكر الأستاذ "تيان" أن مئات القصص الفرعية رويت حول "سونجاتا"، ويشكل نصه هنا إحدى الروايات المتكاملة لهذه الملحمة.

وقد أجاب الأستاذ "كورا أجانوسى" أحد الباحثين حول الملحمة ردا على سؤال: أى النصوص أكثر صحة قائلًا: إنه سؤال "غريب جدا".. فليس ذلك مألوفا حول الملاحم الأفريقية الشفاهية المتعددة النصوص. ويصدق ذلك خاصة لدى شعوب "الماندى" وذكرياتها حول البطل التاريخي: سونجاتا كيثا، المانسا (ملك الملوك، والملك

الأسد) ومسمياته المختلفة مثل "سونجارا" و"سوندياتا" و"تارى جاتا". وهو ما جاء أيضا عند ابن بطوطة، وفي تاريخ ابن خلدون والبكرى، والعمرى، وغيرهم.

ويبدى كثير من المراكز العلمية والثقافية الغربية اهتماما فائقا بروايات شفوية متنوعة عن "سونجاتا" وموسيقاها، ومن ذلك جامعة إنديانا ومركز كيندى وجامعة بنسلفانيا، حيث صدرت العشرات من مطبوعات تبسيطها للأطفال ومعلمى التاريخ، وذلك بعد الاهتمام العارم بها من قبل الأمريكيين الأفريقيين تمجيذا للتاريخ الأفريقى، فترة بحثهم عن هويتهم وتأکید أفريقيّتهم خاصة فى الستينيات وحتى وقت قريب.

بقى أن نعرف أن الأستاذ "جبريل تمسير نيان" مسجل النص الأساسى وكاتبه بالفرنسية لتشره دار "بريزانس أفريكين" ١٩٦٠ وفى ثلاث طبعات متتالية بباريس، هو أستاذ التاريخ بجامعة "كوناكرى" - غينيا، وهو أحد أربعة مؤسسين لموسوعة "تاريخ أفريقيا العام" التى نشرتها اليونسكو منذ عام ١٩٧١، وهو المحرر الرئيسى للمجلد الرابع بوجه خاص شاملا كتابته فى الفصل السادس عن "إمبراطورية مالى" واستكمال توسعها على يد "سونجاتا". كما أنه معنى بمتابعة هذا التاريخ المهم لإمبراطورية "مالى" وتشكيلها للروح الوجدوية لإقليم غرب أفريقيا، على نحو ما عبر عنها ميثاق "كوروكان فوجان" المعروف بين "الماندينج" بميثاق تقسيم العالم "لما

يتضمنه من مبادئ إنسانية ومجتمعية عامة، وتتقاسمها شعوب العالم، صدرت عن اجتماع شابل لملوك المنطقة بزعامة "سونجاتا" ١٢٣٦م، وفق ما ورد في ملحمة "سونجاتا" وسجله "نيان" كمؤرخ. وقد أشرف "نيان" أيضًا على صياغة هذه الوثيقة في شكل دستوري، في (٤٤ مادة) - بعد إعادة اكتشافها عام ١٩٩٨، وإشراف القاضي الأفريقي "سيرمان كوياتي"، مع اعتمادها من علماء التراث بعد اجتماع للرواه في مدينة "كوروكان المعروفة في غينيا، وبإشراف الأستاذ "نيان" نفسه بمعهد بحوث اللغويات التطبيقية بغينيا، تعبيراً عن عمق تأثير الملحمة في صياغة التراث السياسي لشعوب المنطقة.

لقد ظل الأفارقة جنوب الصحراء يعانون المزاغم من قبل مستغليهم الأوروبيين، بل والقريبيين إليهم بشأن افتقارهم "للتاريخ" أو معرفتهم لنظم الدولة، أو الكتابة أو فنون الأدب.. إلخ وكان المستشرقين أو المستفرقين أو غيرهم لم يقرأوا عن مملكة "غانا" منذ بداية الألفية الأولى (٣٠٠م - ١٢٠٠م) أو ممالك "مالى" والتكرور والسنگاي بعدها في غرب القارة، ناهيك عن ممالك الهوسا والزلولو والمتابيلي والسواحيلية وغيرهم في مناطق القارة الأخرى..

وطوال هذه الرحلة في التاريخ المعروف لنا، والتي سميت في بعض المناطق بالعصور الوسطى وعصور الانحطاط وعصور الظلام.. إلخ، تكونت الإمبراطوريات الأفريقية وأعدت الدساتير، كما كتب تراث معروف للغات أفريقية عديدة ومنذ وقت مبكر بالحرف

العربي فيما سمي "بالعجمي..". ومن فنون الأدب عرفنا الملاحم
النثرية والشعرية فيما انتقل إلينا وأصبح بين أيدينا مثل ملحمة
"سونجاتا" الشهيرة بين شعوب الماندينج أو المانديه في أنحاء أفريقيا،
بل وملحمة "الساموري" (عمر تال) وملحمة "الشاكا" بين الزولو
(جنوب القارة).. وكلها أصبحت الآن معروفة خارج حدودها بلغات
العالم المختلفة، تعلن للجميع أن الراوى الأفريقى الذى كان له نظامه
فى التتابع والتدريب كراوى للأمير ثم الملك أو الإمبراطور وعُرف فى
غرب أفريقيا "باسم" الجبلى (أو "الجريو" فى التعبير الفرنسى)، إنما
كان يمثل نظاما متوارثا بدوره مثل توارث الملك، يتناقل فيه الراوى
سيرة الملك والمملكة- بما هو أقرب إلى التاريخ الفعلى للمملكة فى
النهاية وإن جاء بصيغة ملحمية. وتتقل تباعا للجيل التالى، ثم يتناقلها
"رواه العشيرة على مدى قد يطول ليصل إلينا نص- مثل ملحمة
"سونجاتا"- من القرن الثالث عشر حتى رواية "الجبلى ممدو كوياتيه"
الذى سجل روايته "الأستاذ جبريل تمسير نيان"! وفى بحوث أخرى
قد تكون الملحمة تخلقت فى عصر مختلف، قريب أو بعيد حاملة
أخيلة الماضى والحاضر على السواء.

يقول "تمسير نيان" فى مقدمته لنص الملحمة:

"يتعين إذن منذ الآن إزالة الغموض. فالآن عندما نتحدث عن
الرواة، يتبادر إلى الذهن هذه "الفئة من الموسيقيين المحترفين" التى
تكونت للعيش على حساب الآخرين، فإذا قيل راو، فإننا نستدعى

للذاكرة هؤلاء من عازفي الجيتار الكثر، الذين ينتشرون في مدننا ويبيعون "موسيقاهم" في استديوهات التسجيل في كل من داکار وأبیدجان.... إلخ.

"فإذا ما تحول الراوى- الآن- إلى الاستفادة من فنه الموسيقى، بل وحتى للعمل بيديه كي يعيش، فإن الأمر لم يكن كذلك دائما في أفريقيا قديما. كان الراوى فيما مضى هم "مستشارو" الملوك، وكانوا يحافظون على "دساتير" الممالك، وذلك بعملهم الوحيد بالذاكرة، وكان هناك راو لكل أسرة حاكمة، ملزما بالحفاظ على التراث. وكان الملوك يختارون معلمى الأمراء الشبان من بين الرواه. وفي المجتمع الأفريقى الذى تميز بتراتبية كبيرة فيما قبل الاستعمار، حيث كان لكل موضعه، كان يبدو لنا الراوى كواحد من أعضاء هذا المجتمع الأكثر أهمية، لأنه -وبسبب غياب الوثائق- هو الذى حافظ على التراث، ومبادئ حكم الملوك. لقد أجبرت القلاقل الاجتماعية الناشئة عن الغزو، هؤلاء الراوه، على العيش- مثلما هو حادث اليوم- بطريقة مختلفة: كما يستفيدون مما يشكل نفوذهم- إلى تلك الحين من فن الكلام والموسيقى.

سونجاتا.. فى التاريخ

يقف التاريخ أحيانا فى تحدٍ مع السير أو الملاحم الشفاهية الشعبية، ويحدث ذلك مع التراث العربى خاصة، حيث يرى بعض

المتخصصين أنه لا داعى لإرباك النص الشفاهى بوقائع التاريخ، أو العكس، وأظن أن الهلالية مثل غيرها تحتل حيزا كبيرا فى هذا الجدل. ربما يسهم توفر للنصوص التاريخية الموثقة، على المستوى العربى، فى زخم هذا النقاش، خاصة أن الكتابة الموسوعية التكرارية وفهارسها العربية باتت معروفة بصلاتها بالفترة التى شاعت فيها السير والملاحم الشعبية العربية. والحال ليس كذلك تماما على المستوى الأفريقى، ويمكن أن يكون أكثر تعقيدا فى نفس الوقت. فثمة ملاحم معتمدة تشير إلى تواريخ متنوعة، وثمة عملية تأريخ عربى إسلامى فقط وفق وقائع الرحلة العربية إلى أفريقيا، ثم تأريخ أبناء الثقافات الأفريقية لأنفسهم فى وقت متأخر نسبيا عن زمن الرحلة العربية، ثم يأتى المؤرخون الأوربيون بمناهج ونوايا مختلفة كثيرا.

وقد حاول بعض المؤرخين الأفارقة المحدثين أن يجمعوا شتات الجدل بين كل هذه المصادر فى كتابات لمثل "تمسير نيان" و"مادينا لى تال" فى (موسوعة التاريخ العام لأفريقيا- اليونسكو ١٩٧١) عن إمبراطورية مالى تحديدا، فضلا عن إضافات علماء مثل "شيخ أنتا ديوب" و"كى زيربو" و"بويوهاما" وغيرهم ممن مهدوا الطريق لمدارس تاريخية أفريقية أحدث من أمثال "أبوبكر بارى" و"عبد الله باتيلى" و"محمد عبد الشريف" .. وغيرهم.

وهؤلاء جميعا يراجعون مدرسة التاريخ العربية من جهة، ويعتمدون التراث الشفاهى الأفريقى، من جهة أخرى، مصدرا.

للتاريخ أو أحد مصادره المهمة بقدر ما هو مصدر للدراسات الأنثروبولوجية أو دراسات الثقافة الشعبية.

ومن هنا تأتي مكانة ملحمة "سونجاتا" في تاريخ غرب أفريقيا. وحيث لا تسمح مساحة المقال لتفاصيل كثيرة في هذا الصدد، فإننا نريد أن نعرف فقط بطبيعة التفاعل السياسى والثقافى فى عصر نهوض ممالك، ودول وإمبراطوريات على مساحة تمتد من المنطقة العربية الإسلامية شمالا إلى أفريقيا غربا وشرقا قبل أن تبدأ التفاعلية الاستعمارية مع العالم الغربى.

عُرف الكثير عن المرابطين فى الشمال الأفريقى، وتطلعهم ومن تلاهم للتعامل والتفاعل مع ممالك الساحة الأفريقية القريبة منهم فى منطقة غرب القارة حتى لجأوا للالتحام المباشر مع مملكة "غانا" فى القرن الحادى عشر. ورغم سقوط دولة المرابطين أنفسهم فى هذا القرن، فقد تصاعد نجم الموحدين ثم المرينيين حتى القرن الخامس عشر فى علاقات هادئة؛ حتى يأتى السعديون للمغرب بالروح العدوانية المعروفة؛ ليحولوا التفاعل الهادئ إلى هجمات مباشرة حتى لو استعان "أبو العباس أحمد المنصور (الذهبى) فيما بين ١٥٧٨-١٦٠٣ بالإسبان لمهاجمة بقايا ممالك مالى والسنغاي، ولينتهى هو إلى الالتقاء مع الأوربيين والتسليم أمامهم على الساحل الأفريقى.

هذا بينما كان التفاعل قائما من جهة أخرى بين الممالك الأفريقية والممالك الفاطمية والأيوبية حتى تميز عصر المماليك فى

القرن ١٣-١٥ فى مصر بالعلاقات الوثيقة مع ممالك غرب أفريقيا؛
مثلا كان الحال على يد أمثال السلطان قلاوون فى نفس الفترة
المرينية النشطة من قبل المغاربة. ورغم البدايات المتواضعة
للوصول الأوروبى للمنطقة الأفريقية على يد البرتغاليين منذ القرن
الخامس عشر من أجل الذهب والعاج والرقيق، فإنهم استطاعوا
تحويل نظر الممالك الأفريقية إلى أهمية الساحل الغربى للقارة بدلا
من تركيز النظر على الشمال والمشرق.

كانت هذه الفترة فى الغرب الأفريقى فترة ازدهار لتجارة
الذهب وصنائع الحديد والنحاس والعاج بل والأسلحة البيضاء، كما
كانت عواصم الالتقاء العربى الأفريقى ممتدة من القاهرة وغدامس
والقيروان وفاس إلى جاو، وتومبوكتو، ونيانى وكاتم ثم كانو.. إلخ.
وهى نفس الفترة التى جاء إلى المنطقة مؤرخون ورحالة مثل البكرى
والإدريسى والعمري ثم ابن بطوطة وابن خلدون (بين القرن الحادى
عشر وحتى الخامس عشر..). ولأنها لم تكن فترة صراعات تذكر فلم
ينتبه التاريخ العربى إلى طبيعة تفاعلات السلطة فى أفريقيا ومراكز
ممالكها بل وحدود وضع الإسلام فيها ونخبه الحاكمة فى بعضها دون
الآخر مثلا حدث مع غانا ومالى، وإنما أسمى معظم المؤرخين
العرب شعوب هذه المنطقة مجتمعة "بلاد السودان، وبلاد التكرور"،
مستحضرين فقط نمط السلطة الإسلامية، من غزوات ورقيق وحريم
وتجارة واسعة. ولم يسجل المؤرخ العربى طبيعة التطور فى غانا

"بتاريخ ممتد من عام ٣٠٠م إلى ١٢٠٠ ممثلة لشعب "السوسو" جنوب نهر السنغال أو قل من "قوتاجالون" إلى قرب نهر النيجر، إلى نشوء إمبراطورية مالي "الماندينج"؛ والرغبة الجامعة عند ملوكها للتوحد في مواجهة احتمالات زحف بقايا ملوك "غانا". وكان "الماندينج" أو "المانديه" أو الميندى يشعرون أنهم أصل شعوب معظم بلدان غرب أفريقيا. وهذه الرغبة التوحيدية منذ ١٢٠٠ ميلادية هي التي أسست إمبراطورية "مالي" بقيادة "سونجاتا كيتا"، أو نارى ماغان جاتا..

وقبل أن نشرع في وضع "سونجاتا" في تاريخ مالي، أرى أن أنبه أيضا إلى جهد المؤرخين "الأفارقة" أنفسهم في هذا المجال؛ أمثال "محمود كعت" في تاريخ الفتاش" أو عبد الرحمن السعدى" في "تاريخ السودان"، و"أحمد بابا التمبكتي" في "تيل الابتهاج"؛ وذلك طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر. لكن هؤلاء بدورهم لم يستطيعوا إلا أن يكونوا" مؤرخين إسلاميين" بأدوات التاريخ الإسلامية عن السلطنات والممالك، وتصور نشر الإسلام بين "الوثنيين" في أفريقيا.. وفى هذا الصدد لم يحتل الإمبراطور "سونجاتا كيتا" مؤسس إمبراطورية مالي إلا القدر اليسير في الذاكرة العربية أو "المكتوب" الأفريقى، لأن هذه الذاكرة لم تهتم إلا بذلك "المانسا موسى" أحد ملوك هذه الإمبراطورية بعد مائة عام من تأسيسها لأنه التزم بالإسلام وحمل أطنان الذهب وآلاف العبيد إلى القاهرة (١٣٢٥) مارا بها فى

طريقه إلى مكة في رحلة الحج الشهيرة في كتب التاريخ العربية.. وبهذا التجاهل للتفاعل السياسى فى المنطقة فيما بين الممالك أو بين هذه الممالك وسلطنات الممالك (مصر)، والمرينية (المغرب)، وعلى مدى عدة قرون لم يبق من التاريخ إلا أن "العرب" ساعدوا السلطنات الإسلامية لتدمير مملكة "غانا" الأفريقية! وهو ما انطلق به المؤرخون الأوروبيون عموماً، بل وبقي فى المعارف الدارجة لعدد من الباحثين العرب. وعندما أصبح التاريخ أقرب إلى الفولكلور، أصبح الموروث التاريخى العربى لا يرد فى أحيان كثيرة إلا صلة ملك "كانم وبرنو" بالسلطان قلاوون "عزيز مصر أم الدنيا"، أو على نحو ما تذكر الرسالة الموجهة من ملك مالى "المانسا محمود الرابع" إلى ملك البرتغال بأن "سلطانى لا مثيل له سوى أربعة سلاطين هم: سلطان اليمن، وسلطان بغداد وسلطان القاهرة، وسلطان التكرور".. ولا يذكر ناقلو هذا التاريخ أن القرن السادس عشر (وقت صدور هذه الرسالة) كان بداية تسليم السلطنات الأفريقية والمغربية على السواء لطرق التجارة ومواردها إلى الإسبان والبرتغاليين على الساحل الغربى الأفريقى الذى يصبح ساحة وطنية لمقاومة تجارة الرقيق الأطلنطية، وجهاد "الحاج عمر" ثم "الشيخ عثمان دان فوديو" ضد الاستعمار الغربى الزاحف.

أهمية تاريخ مالى إذن وتأسيس "سونجاتا كيتا" لإمبراطورية مالى عام ١٢٣٥ هى فى التعرف على أسس التّوحد الأفريقى والتنوع

الثقافى فى منطقة واسعة من القارة تفاعلت مع العالم العربى الإسلامى بقدر ما برزت ممالكها من "غانا" إلى مالى إلى السنغالى. وسنرى فى تاريخ "الملك الأسد" أنه لم يكن مدمرا "لغانا" الوثنية الأفريقية بقدر ما كان موحدا للمنطقة قبل الغزو الأوروبى، بل إن التاريخ الحقيقى لسونجاتا كيتا والملحمة المتناقلة بسيرته لم يشير أبى شكل إلى أنه كان من دعاة الإسلام فى المنطقة، بل "حاميا" للجماعات المسلمة فيها.

يعتبر الأستاذ "تمسير نيان" هو المصدر الأساسى الحديث للتاريخ لإمبراطور مالى "سونجاتا كيتا" معترفا بأن المؤرخين الأوربيين لم يتوصلوا للتعرف على هذا الإمبراطور أو على وضعه فى سلسلة ملوك المنطقة إلا عبر ما جاء عن المؤرخين العرب وخريطة ابن خلدون لملوك مالى بوجه خاص. وحتى هذه الأخيرة كانت عبر مقابلات شفوية لابن خلدون مع مصادر فى القاهرة من القادمين من أبناء مالى إليها. ومن هنا اعتبر "تمسير نيان" أن التاريخ الشفاهى يظل مصدرا أساسيا للتاريخ السياسى والاجتماعى فى أفريقيا، ومن هنا حرص على تسجيل ملحمة "سونجاتا" ونشرها عام ١٩٦٠ باعتبارها سيرة إمبراطورية مالى.

"وتمسير نيان" كما قلنا من المدرسة الحديثة التى امتدت مع "جوزيف كى زيربو" ثم شباب المؤرخين فى دكاكر لكتابة حصيلة جهدهم فى موسوعة التاريخ العام لأفريقيا، ومنشورات معهد "إيفان"،

و"كوديسريا" بذاكار (بوبر بارى..) وما يهمننا ذكره هنا بايجاز أن "سونجاتا كيتا" لم يكن أول ملوك مالى رغم أنه "الإمبراطور المؤسس" فى النصف الأول من القرن الثالث عشر، فهو فى التاريخ الملك العاشر تقريبا، وأبوه .. هو ملك إحدى الممالك فقط (نيانى) ولذا اهتم بالابن الموعود بالإمبراطورية. وهنا يوجز "تمسير نيان" التشابك بين التاريخ الفعلى والتشكيل الملحمى فيما اتفقت عليه الروايات الشفوية حول شخصية "سونجاتا" فى عدة نقاط:

طفولة "سونجاتا" الصعبة- منفاه فى مملكة ميمبا- إرسال المبعوثين فى طلبه لإنقاذ المملكة، وعودته إليها، - تحالفه مع رؤساء الممالك الماندية لهزيمة ملك "واجادو" المنافس، وإعلان ميثاق جديد كدستور للإمبراطورية باسم ميثاق "كوروكان فوجان" أو "تقسيم العالم"- إعلان "سونجاتا": "مانسا"، أى إمبراطور لمالى فى "نيانى". ولتر الآن كيف تأتى الملحمة فى ذكر سيرة "سونجاتا".

تداخل المنطق التاريخى- والمنطق الملحمى فى "سونجاتا"

رأينا أن معظم المؤرخين الأفارقة يعتبرون أن الملاحم الشعبية التى توفرها الثقافات الأفريقية، فضلا عن التاريخ الشفاهى عموما بمصادره المختلفة، هى التى تضبط إيقاع التاريخ المكتوب أو تتبادل معه "الحقائق" التاريخية، رغم الأسطورية التى تسم وقائع الملحمة عن الشخصيات والأحداث، أو قوة السحر والخيال وأثرها فى ترتيب

هذه الأحداث.. وقد لا يتفق مع هذا الكلام كثير من النقاد للنوع الملحمى عموما ممن يرون أن الملحمة فن وحده وتعبير مستقل عن الفعل الجمعى والذاكرة الشعبية الجماعية التى تتطلق من الماضى والحاضر على السواء خاصة عند هؤلاء النقاد الذين يأخذون بالقول أنه لا نص واحد "للملحمة" أصلا لا فى الزمان.. ولا فى المكان.

وقد رأينا أن "تمسير نيان" مسجل نص "سونجاتا" - الملحمة - الذى بين أيدينا - رغم اقترابه كثيرا من الواقع التاريخى، إلا أنه ينبه إلى التزامه بالمبدأ النقدى أيضا.

لكن واقع التاريخ لممالك مالى وإمبراطوريتها يظل إلى جانب "تيان" المؤرخ إلى حد كبير، بقدر ما هو إلى جانب نصه الملحمى! وقد بدت ملحمة مثل "سونجاتا" كاشفة أكثر من غيرها للحقائق التاريخية. ففي ملحمة "سونجاتا" تبدو الرغبة فى توحيد مناطق الماندينج والسوسو؛ "تيانى" و"واجادو" أى فى منطقة شاسعة من غرب أفريقيا، وتتفاعل فيها روح التعدد الثقافى والميل للتوحد فى آن، وقد يأخذ التفاعل شكلا صراعيا تارة وتحالفيا تارة أخرى. ومن هنا يبدو الحديث "التاريخى" قريبا من الملحمى حين يتناول تكوين "الإمبراطورية" من واقع مشئت سبق إنجازها، ولذا يستدعى "سونجاتا" فى التاريخ والملحمة لإنقاذ مملكة والده المهددة بالانهيار أمام ملك السوسو ذى القوة السحرية..

هنا يبدو جوهر انطلاق العلاقة بين التاريخي والملحمي، خاصة في لحظة صراعية مثل هذه.

ويدعم الواقع الذي أصبح يقوده "سونجاتا" الشاب من أجل تكوين الإمبراطورية الأفريقية الجديدة (مالى) أجواء تصعيد انتصاراته الملحمية، بل وتوفير فرص "مالى" (التاريخية) في الاتصال بعرب الشمال الأفريقي، وتيسير تأمين الطرق إلى مصر والمشرق لصالح التجارة الأفريقية (رحلات المانسا للحج) والتبادل الأخذ في الاتساع نحو المشرق العربي. وهذا الجو يحتاج إلى مملكة قوية ليست مهمتها التبشير أو الفتوح الإسلامية كما كان يدعى أهل الشمال، ولكن مهمتها تنسيق المصالح الكبرى لتجارة الملح والعاج والنحاس والرقيق وصناعة السلاح وهو ما ازدهر بالفعل في عصر "سونجاتا" ملك الملوك، و"المناسي" من بعده على نحو ما رواه مؤرخو العرب والعجم!.

قد تكون ملحمة "سونجاتا" في أقرب نصوصها المعروفة قد صيغت في وقت متأخر عن فترة ازدهار الإمبراطورية نفسها في القرنين ١٢-١٤ فهكذا يعلمنا التاريخ عن بعض الملاحم العربية الكبرى التي قيل أنها طرحت في الثقافة العربية فترات التدهور بعد الحروب الصليبية والتهالك الأيوبي والمملوكي حتى وصول العثمانيين وطلائع الاستعمار الحديث. هكذا تبدو أيضا بوادر التبلور الملحمي عن "سونجاتا كيتا" (القرن الثالث عشر) في وقت قد يكون

متأخرا كثيرا عن ذلك. "وهنا تبدو أهمية الراوى الأفريقى- الجبلى
والذى يعتبره "تيان" مصدرا تاريخيا وملحميا فى نفس الوقت. لأن
التاريخ الشفاهى فى معظم أنحاء أفريقيا- فى رأى "تيان" هو "النص
الأفريقى" معبرا عنه بأشكال مختلفة منها الملحمة، وأن النخبة التى
تكونت على يد الاستعمار بعد ذلك هى التى صممت على أهمية
"المكتوب" وعدم اعتماد النص أو الرواية الشفاهية التاريخية إلا عبر
منهجية النخبة الأوروبية الحاكمة أو أتباعها ليربطوا بين النفى
التاريخى وافتقاد الكتابة الأفريقية. ولا يسلم "تيان" وغيره من
المدرسة الأفريقية الحديثة بأن تدهور وضع الراوى حاليا يمكن أن
يعبر عن عدم قيمة النصوص التاريخية أو الملحمة الراسخة.

لذلك حرص "تيان" على تسجيل "تقديم" "راوية"- كوياتييه-
لنفسه بشكل يؤكد موقفه هو بالأساس تجاه النص الشفاهى الملحمى
ودلالته التاريخية. سأضع هنا بدورى فاتحة الكتاب- ملحمة سونجاتا
أو ملحمة شعب الماندينج كما يقدمها نص تمسير نيان عام ١٩٦٠:
"كلام الراوى مامادو كوياتييه":

أنا راو، أنا "جبلى" مامادو كوياتييه Djeli Mamadou Kouyaté
ابن بنتو كوياتييه Binto Kouyaté وجبلى كيديان كوياتييه Djeli Kedian
Kouyaté، معلم فى فن الكلام، وكنا منذ أزمنة سحيقة فى خدمة
أمراء "كييتا" Keita الماندينج: نحن حقائب الأقوال، حقائب تخبئ

أسراراً عتيقة تغطي عدة قرون من الزمن، لا يخفى فن الكلام عنا
سراء، بدوننا تسقط أسماء الملوك في غياهب النسيان. نحن ذاكرة
الشعوب، وبالكلام نهب الحياة لأحداث الملوك وأعمالهم أمام الأجيال
الناشئة.

لقد أخذت علمي عن أبي الجيلي كيديان، الذي أخذته أيضاً عن
أبيه. ليس في التاريخ ما يخفى علينا، نعم الجمهور ما نريد له أن
يتعلمه، فنحن من يحتفظ بمفاتيح الاثني عشر باباً للماندينج.

كنت أعرف قائمة بكل الملوك الذين تعاقبوا على عرش
"الماندينج"، وأعرف كيف انقسمت الشعوب السوداء إلى قبائل لأن
أبي ورثني كل معارفه: أعرف لماذا يسمى هذا كمارا، وذلك كيتا،
والآخر سيديبيه، أو تراوريه. فلكل اسم معنى ومدلول سرى.

علمت ملوكاً تاريخ أجدادهم كي يتخذوا من حياة القدامى مثلاً
لهم؛ لأن العالم قديم والمستقبل يخرج من رحم الماضي.

كلامي صاف، ومنزه عن كل كذب؛ إنه كلام أبي وكلام والد
أبي. سأقول لكم كلام أبي كما تلقينه عنه؛ قرواة الملك لا يعرفون
الكذب وحينما ينشب عراك بين القبائل فنحن من يحكم في هذا
الخلافاً، لأننا الأمناء على العهود التي قطعها الأسلاف.

أنصتوا لكلامي؛ أنتم يا من تريدون المعرفة؛ فمن فمي
تتعلمون التاريخ... تاريخ الماندينج، ومن كلامي ستعرفون تاريخ جد

"الماندينج العظيم، تاريخ ذلك الذى تفوق بمآثره على ذى القرنين Djoul Kara Naini، الذى سطع نوره من الشرق على كل بلاد الغرب، أنصتوا لتاريخ ولد العجل وولد الأسد.

سأحدثكم عن ماغان سونجاتا" عن نارى جاتا" عن سوجولون جاتا، عن نارى ماغان جاتا؛ أى عن الرجل ذى الأسماء المتعددة الذى عجز العرافون عن المساس به.

المنطق المحصى

تقع أحداث الملحمة فى منطقة ممتدة من وسط الصحراء الكبرى شرقا والمعروفة فى كتب الرحالة ببلاد السودان، وتمتد حتى سنجامبيا ومرتفعات فوتاجالون غربا على ساحل الأطلنطى، ومع منابع نهر السنغال ونهر النيجر.. كانت جاو وتومبوكتو فى الشرق تتطلع دائما إلى مد نفوذها إلى واجادو غربا....

الملحمة تتحدث عن أبناء الماندينج الذين لم يكونوا من أبناء البلاد الأصليين؛ إنهم قدموا من الشرق، وكان بيلالى (بلال) الجد الأول للكيتا هو الخادم الأمين للنبي محمد.. وله سبعة أبناء؛ الابن البكر "لوالو" - أو الأول - هو الذى رحل من المدينة المقدسة واستقر فى الماندينج.. فى ساحة "الماندينج" نشأت عدة ممالك صغيرة - هى فى الملحمة والتاريخ اثنى عشر - يقود أحدها "ماجان كون فاتا" - ملك "تيانى" المتواضع القدر أمام هجمات سوماؤور ملك غانا الذى يتحدى

العالم من على عرش "السوسو" وهزم تسع ملوك ليصنع من رؤسهم
تمائم فى خرفته السحرية المرعبة..

لكن عراقيين يبشرون "ماجان" وهم يحركون بين أيديهم
الأصداف الاثنى عشر بأن الماندينج ستخرج من الظلام، وسيأتى
النور من الشرق على يد ملك قائم؛ طفل لم يولد بعد؛ تضعه امرأة
دميمة محدبة الظهر يتوجب عليه أن يتزوجها لأنه مقدر أنها ستكون
أم ذلك الذى سيقود المانديج، ويهزم واجادو، وسيكون الطفل سابع
نجم والفتاح السابع للأرض، وأقوى من ذى القرنين...

صيادون قادمون للملك يتصدون للعجل غريب الأطوار على
مدخل القرية (مثل ثعبان غانا الذى كانت تقدم له كل عام فتاة
كأضحية)، لكن الصيادين يقتلون عجل نيانى.. وتتطور الأحداث حتى
يأتون بالمرأة المشوهة "سوجولون" إلى الملك ماجان.. وحتى تلد
الطفل سونجاتا قعيدا كسيحا غير صالح ليكون وريثا للعرش، إذ يتقدم
عليه أبناء الزوجة الأخرى... فيرثوا الملك، ويطردوا الطفل مع أمه
المشوهة إلى مملكة "ميما"، فترعاة حتى يهب قويا بطوليا.. فى
الثامنة من عمره، حاملا قضيب الحديد الذى لا يقوى على حمله إلا
سنة أشخاص... ويشتهر بالقوة؛ حتى يستدعيه أهل مملكة "نيانى"
لإنقاذ المملكة إزاء هزيمة أخوته (أمام ملك "السوسو"... ملك غانا.
ويشتهر "سونجاتا" الملك الأسد ابن المرأة العجل بأنه حيث حل تحل
السعادة فى كل العالم... مقارنا دائما بذى القرنين الذى يقول "تمسير

نيان" أنه الإسكندر الأكبر.. "الفتاح ما قبل الأخير للعالم" (عند الماندينج)؛ حيث سونجاتا هو الفاتح السابع والأخير... يقود "سونجاتا" جيوش نياني والممالك الصغيرة مرتتبا ليس أمير مسلم، يزحف بها شرقا وغربا، ويهزم ملك "واجادو" (غانا) ويعلن نياني مركزا لإمبراطورية مالي.. وحيث الطريق إلى مكة لابد أن يمر "بنياني". ويبدأ سونجاتا بعقد التحالفات، ويعطى ملك غانا نفسه مكانته في الحلف الجديد، الذي يعد ميثاق العالم أو ميثاق تقسيم العالم (١٢٣٦) متضمنا المبادئ الإنسانية التي تحكم بها الإمبراطورية.

ماذا عن نهاية سونجاتا الدرامية؟ معروف الآن أن رواية الماندينج لا يحكون أسرار موت الملوك، ولذا يشير "تمسير نيان" إلى الروايات التاريخية في هذا الصدد، والتي تتعدد بين جمهور الماندينج حتى الآن. ويذكر مؤرخ فرنسي مثل "ديلافوس"، روايتين، أحدهما غرق سونجاتا في نهر سنكراني الذي تقع عليه "نياني"، والثانية أنه قتل بسهم طائش أثناء احتفال عام في نياني. ويرجح "تمسير نيان" - كمؤرخ - رواية الغرق قرب المكان الذي يقال أنه دفن فيه، ويقول: "رغم كل الروايات فإن المحتمل هو أن يكون سونجاتا قد مات غرقا أما الملحمة فتقول على لسان الراوى كوياتيه:

"الرواة هم موضع الأسرار، لا يفشونها مطلقا.. ويرقد ماجان سونجاتا، آخر غزاة الأرض؛ ليس بعيدا عن "نياني نياني"... أي في بالاندوجو.. مدينة السد!"

وقد استمرت هذه الإمبراطورية حوالى العقدين حتى انهارت على يد الزحف المغاربي المتعاون مع أطراف الإمبراطورية (السفغاي في جاو) من جهة ووصول الاستعماريين البرتغاليين من جهة أخرى.

الملحمة وتاريخ الإمبراطورية معروفان جيدا على نطاق عالمي، حاليا على الأقل، استخدمت عناصرهما من أكثر من قوى عرفت المنطقة تباعا. فالعرب اعتبروها مركز انتشار الإسلام في غرب القارة- بلاد السودان- والغرييون اعتبروها أداة العرب والمسلمين لتدمير مملكة "غانا الأفريقية" وإقامة إمبراطورية موالية لهم في تسير تجارة الرقيق، وكثير من المثقفين الأفارقة مضوا في موجة الاستقلال مع التفسير الأوروبي عن "أفريقية" غانا ضد إسلام مالي، مدعومين بأفكار بعض الزعامات الزنجية والأفريقية الجديدة (سنغور- نكروما) والحماس لدى الأفرو أمريكيين عن (الوطن الأم أفريقية) التي هدد العرب أصوليتها الزنجية- الأفريقية. أما "تفسير نيان" فإنه يعكس مدرسة في التاريخ الأفريقي تمتد من الشيخ "أنتا ديوب" نفسه، ترى أن الإسلام كان عنصر توحيد بين كثير من الأفارقة، ولا يشترط التعامل معه كمجرد أداة في السلطنات العربية أو تجارها؛ حيث كانت الممالك الأفريقية نفسها تزدهر في نفس الفترة عبر تبادل تجاري واسع مع العرب شمال القارة والمشرق العربي، وأن مملكة مالي لم تكن مجرد مملكة إسلامية على نحو ما قدمها الرحالة العرب.

هنا يبدو دور الملحمة التي لم تكشف عن أى طابع إسلامي جذري عند سونجاتا أو في مملكة مالي، بل تتوازن الأمور الإسلامية والأسطورية من حوله؛ حيث يبدو إمبراطورا بالأساس يلبس مثل أمراء المسلمين، وكأنه مجرد مغرم بتقليدهم، لكنه حريص في الاجتماع التأسيسي مع ملوك الإمبراطورية - كما تروى الملحمة، أن يعلن "ميثاقا جديدا" في أحد مراكز نفوذه "كروكان" فوجان "يسميه" تمسير نيان "بالدستور الإمبراطوري. ويرد "نيان" في أحدث مقالاته على القائلين بأن الملحمة في صيغتها التي قدمها هو وأمثاله في الستينيات مع بدء النهوض الوطني في أفريقيا إنما ساندت "حكام الوحدة الوطنية" الاستبداديين باسم البطولة التاريخية! يقول نيان، إن الملحمة تكشف روح "التنوع الثقافي" في مساحة واسعة عرفت بإمبراطورية مالي، ولم تتحدث عن تصارع عرقي أو قبلي أو ديني، على نحو ما يصوره كثير من الباحثين الغربيين. فلمحة "سونجاتا كيتا" هي وثيقة عن المساحة الواسعة لثقافة "الماندي" التوحيدية في غرب أفريقيا، وليست مجرد تاريخ لمملكة قبلية.

قراءات

(*) D.T. Niane: Soundjata: ou L'Epoupée Mandingue Presence Africaine- Paris 1960.

الترجمة للعربية: توحيدة على توفيق- المركز القومي للترجمة- القاهرة ٢٠٠٩.

(*) D.T. Niane: interview: Patrimoine Histoire en Afrique, no, 3 Dakar 2008.

٢- ج.ت- نيان: مالي والتوسع الثاني للماندينج في: تاريخ أفريقيا العام- الطبعة العربية المجلد الرابع-الفصل السادس- اليونسكو- باريس ١٩٧١.

٣- م.لاي تال: تدهور إمبراطورية مالي. في: تاريخ أفريقيا العام- الفصل السابع- الطبعة العربية- المجلد السابع-اليونسكو- باريس ١٩٧١.

٤- فنسان مونتاي: الإسلام في أفريقيا السوداء ترجمة: إلياس حنا إلياس- دار أبعاد- بيروت- ١٩٨٣.

٥- بوبكر باري: سنجامبيا: دفاع من أجل تاريخ جهوى- ترجمة مصطفى أعشى وأحمد لقمهرى- معهد الدراسات الأفريقية- الرباط- ٢٠٠٠.

٦- عبد الحميد حواس: أنواع الحكى وطرق الأداء، محمد حافظ دياب: حوار الشفاهى والكتابى: السيرة الهلالية نموذجاً، فى: الحكى الشعبى بين التراث المنطوق والأب المكتوب أعمال المؤتمر السابع لقسم اللغة الفرنسية وآدابها مارس ٢٠٠٩ - دار العين للنشر القاهرة ٢٠٠٩.

٧- مقابلات شخصية مع البروفيسور تمسير نيان (تونس - دكار) (٢٠٠٦-٢٠٠٧).

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب، أو بالأحرى هذا العمل الألبى، هو لراو griot مغمور، من قرية جيليبا كورو Djeliba Koro، الواقعة في محيط منطقة سيغيري Siguiri بغينيا. إننى أدین له بكل شيء، فقد أتاحت لى معرفتى ببلاد المالىنكية أن أنوّه صراحة، بعلم وموهبة رواة الماندينج التقليديين فيما يتصل بالتاريخ.

يتعين إذن، ومنذ الآن، إزالة الغموض، فالآن عندما نتحدث عن الرواة، يتبادر إلى الذهن هذه "الفئة من الموسيقيين المحترفين" التى تكونت للعيش على أكتاف الآخرين، فإذا قيل راو فإننا نستدعى للذاكرة هؤلاء من عازفى الجيتار الكثر الذين ينتشرون فى مدننا، ويبيعون "موسيقاهم" فى "أستوديوهات" التسجيل فى كل من داکار وأبیدجان.

فإذا ما تحول الراوى - الآن - إلى الاستفادة من فنه الموسيقى، وحتى إلى العمل بيديه كى يعيش، فإن الأمر لم يكن كذلك دائما فى أفريقيا قديما. كان الرواة فيما مضى هم "مستشارو" الملوك، وكانوا يحافظون على "نساتير" الممالك، وذلك بعملهم الوحيد بالذاكرة. وكان هناك راو لكل أسرة أمير، ملزما بالحفاظ على التراث، وكان الملوك يختارون معلمى الأمراء الشبان من بين الرواة. وفى المجتمع الأفريقى الذى تميز بتراتبية كبيرة فيما قبل

:
الاستعمار، حيث كان لكل موضعه، كان يبدو لنا الراوى كواحد من أعضاء هذا المجتمع الأكثر أهمية، لأنه - وبسبب غياب الوثائق - هو الذى حافظ على العادات والتراث ومبادئ حكم الملوك. لقد أجبرت القلاقل الاجتماعية، الناشئة عن الغزو، هؤلاء الرواة على العيش - مثلما هو حادث الآن - بطريقة مختلفة: كما يستفيدون مما كان يشكل نفوذهم - إلى ذلك الحين - من فن الكلام والموسيقى.

ومع ذلك، يمكن أن نجد الراوى الذى يكاد يبدو فى إطاره القديم، بعيدا عن المدينة، مقيما فى القرى العتيقة للماندينج من أمثال كا - با Ka - ba أو كانجابا Kangaba وجيليا - كورو، وكرينا Krina... إلخ، التى تتباهى بأنها لا تزال تخلد الإرث الذى خلفه الأجداد. وعموما ففي كل قرية من "ماندينج العتيقة" هناك أسرة لراوى تقليدى، تحافظ على التراث التاريخى وتعلمه؛ بل إن الشائع أنه توجد قرية من أصحاب المأثور لكل مقاطعة من أمثال: فاداما Fadama للهامانا Hamana (كوروسا، غينيا Guinée، Kouroussa) وجيلا Djeela (دروما - سيغيري Droma, Siguiri وكيلا Keyla السودان الغربى) إلخ.

لقد علمنا الغرب - للأسف - أن نحتقر المصادر الشفهية فى ما يخص التاريخ، فكل ما لم يكتب غثا أو ثميνα - كان يعد بلا سند. كما اختزلت النظرة بين بعض قصار النظر من المتقنين الأفريقيين إلى نظرة احتقار للوثائق "الناطقة" أى للرواة. وليؤمنوا أننا لا نعرف

شيئا، أو نعرف القليل فقط، عن ماضيها لعدم توافر الوثائق المكتوبة. ويبرهن هؤلاء ببساطة أنهم لا يعرفون بلدهم سوى عن طريق البيض. إن كلام الرواة التقليديين جدير بالتقدير لا الازدراء.

والراوى الذى يمتلك ناصية التاريخ فى قرية ما هو أستاذ على أكبر قدر من الاحترام ونعرفه باسم بيلين – تيغى Belën- Tigui، وهو الذى طاف بكل الماندينج Mandingue وتقل من قرية لأخرى يتلقى المعرفة من الأساتذة العظام، وتعلم فن الحكى الشفاهى للتاريخ على مدى سنوات طوال، فضلا عن أداته اليمين ألا يقوم بتعليم أحد سوى ما تطلبه منه "مؤسسته". إذ يقول الرواة: "كل علم حقيقى يجب أن يكون سرا". أليس صاحب المأثور أستاذًا فى فن التلميح. فهو يتحدث بصيغ قديمة مهجورة، أو بالأحرى يحول الوقائع إلى أساطير مسلية من أجل الجمهور، تكون ذات معنى خفى بما لا يثير شك العامة قط.

لقد تفتحت عيناي بالكاد على أسرار أفريقيا الخالدة هذه، وفى ظمئى للمعرفة كان يتعين على أن أضحي بغرورى البسيط، كمثقف عصرى، أمام صمت التراث حين تلح أسئلتى البلهاء فى الكشف عن سر ما؟

هذا الكتاب هو إذن ثمرة أول اتصال برواة الماندينج التقليديين الأكثر أصالة ولست سوى مترجم، أدين بالفضل لأساتذة فاداما،

وجيلبا كورو، وكييلا، وبوجه أخص للجيلي مامادو كوياتييه Djeli Mamadou Kouyaté، من قرية جيلبا كورو (سيغيري) بغينيا.

عسى أن يوقظ هذا الكتاب أكثر من أفريقي، ويحثه على الجلوس بتواضع بجانب القدامى، والاستماع إلى كلام الرواة، الذين يعلمون "الحكمة" و"التاريخ".

جبريل تمسير نيان

D.T.N

النص

كلام الراوى مامادو كوياتييه

أنا راو، أنا جيلى مامادو كوياتييه Djeli Mamadou Kouyaté
ابن بنتو كوياتييه Bintou Kouyaté وجيلى كيديان كوياتييه Kouyaté
Djeli Kedian، معلم فى فن الكلام. وكنا منذ أزمنة سحيقة فى خدمة
أمرء كيٲا Kéita الماندينج: نحن حقائب الأقوال، حقائب تخبئ
أسراراً عتيقة تغطى عدة قرون من الزمن. لا يُخفى فن الكلام عنا
سرا، بدوننا تسقط أسماء الملوك فى غياهب النسيان. نحن ذاكرة
الشعوب، وبالكلام نهب الحياة لأحداث الملوك وأعمالهم أمام الأجيال
الناشئة.

لقد أخذت علمى عن أبى جيلى كيديان، الذى أخذه أيضا عن
أبيه، ليس فى التاريخ ما يخفى علينا، نعلم الجمهور ما نريد له أن
يتعلمه، فنحن من يحتفظ بمفاتيح الاثنى عشر بابا للماندينج^(١).

كنت أعرف قائمة بكل الملوك الذين تعاقبوا على عرش
"الماندينج"، وأعرف كيف انقسمت الشعوب السوداء إلى قبائل، لأن
أبى ورثتى كل معارفه: أعرف لماذا يسمى هذا كامارا Kamara،
وذاك كيٲا Kéita، والآخر سيديبيه Sidibé أو تراوريه Traoré، فكل
اسم معنى، وملول سرى.

علمت ملوكا تاريخ أجدادهم، كى يتخذوا من حياة القدامى مثلا
لهم، لأن العالم قديم، والمستقبل يخرج من رحم الماضى.

كلامى صافى، ومنزه عن كل كذب، إنه كلام أبى، وكلام والد أبى. سأقول لكم كلام أبى كما تلقينه عنه، فرواة الملك لا يعرفون الكذب، وحينما يتشب عراك بين القبائل، فنحن من يحكم فى هذا الخلاف، لأننا الأمناء على العهود التى قطعها الأسلاف.

أنصتوا لكلامى، أنتم يا من تريدون المعرفة، فمن فى تتعلمون تاريخ الماندينج ومن كلامى ستعرفون تاريخ جد "الماندينج العظيم"، تاريخ ذلك الذى تفوق بمآثره على ذى القرنين Djoul Kara Naïni^(٢). الذى سطع نوره من "الشرق" على كل بلاد "الغرب".

أنصتوا لتاريخ ولد "العجل" "Buffle" وولد "الأسد" "Lion"^(٣).

سأحدثكم عن ماغان سونجاتا Maghan Sondjata ، عن مارى جاتا، عن سوجولون جاتا، عن ناريه ماغان جاتا، أى عن الرجل ذى الأسماء المتعددة الذى عجز العرافون عن المساس به.

الهوامش:

(١) حسب الرواة التقليديين، كانت بلاد الماندينج الأصلية، قد تألفت من اثني عشر مقاطعة، وبعد غزوات سونجاتا زاد عدد المقاطعات بدرجة كبيرة، ويبدو أن بلاد الماندينج الأصلية كانت كونفودرالية من قبائل مالينكيه الرئيسية، مثل: كيتا، كونديه Kondé، تراوريه، كامارا، وكوروما Koroma.

(٢) المقصود هنا الإسكندر الأكبر Alexandre Le Grand الذي لقبه الإسلام بذي القرنين Douk Kar Naïn، وتجرى المقارنات غالبا لدى كل أصحاب المأثور في بلاد المالينكيه بين الإسكندر وسونجاتا، وتوضع الرحلة من الغرب إلى الشرق للأول مقابل رحلة السير للثاني من الشرق إلى الغرب.

(٣) العجل: وفقا للتراث، كان لأم سونجاتا طوطم هو العجل والمقصود هنا هو أسطورة العجل، والذي يقال إنه دمر بلاد دو "Do". أما "الأسد" فكان الطوطم الجد لآل كيتا. إذن سونجاتا هو ابن الأسد من خلال أبيه، وابن العجل من خلال أمه.

ملوك الماندينج الأوائل

أنصتوا إذا، أنتم يا أبناء الماندينج، وأطفال الشعب الأسود، أنصتوا لكلامي، سأحدثكم عن سونجاتا Soundjata، أبي البلاد المضيفة Clair- Pays، بلاد السافانا، والجد الأكبر لأولئك الذين يشرعون أقواسهم، والسيد لمائة ملك من الملوك المظفرين.

سأحدث عن سونجاتا أي ماندينج ديارا Manding- Diara، وأسد الماندينج وهو سوجولون جاتا، ابن سوجولون Sogolon، أي ناريه ما غان جاتا Naré Maghan Djata، ابن ناريه ماغان، أي سوجو سوجو سيمبون سالابا Sogo Sogo Simbon Salaba، وهم جميعا أبطال بأسماء متعددة.

سأحدثكم عن سونجاتا، ذلك الذي ستدهش مآثره الناس لأمد طويلة. كان سونجاتا عظيما بين الملوك، لا يُقارن بين الرجال، محبوبا من الله، لأنه كان آخر الفاتحين العظام.

في أول الأمر كانت الماندينج مقاطعة لملوك بامبارا Bambara، هؤلاء الذين يُسمون الآن بالمانينكا Maninka^(١)، سكان الماندينج لم يكونوا من أبناء البلاد الأصليين: فقد قدموا من الشرق. وكان بلال بوناما Bilali Bounama، وهو الجد الأول للكيثا Kéita، وهو الخادم الأمين للنبي محمد Mohamnadou^(٢) (سلام الله عليه).

وكان لبلال بوناما سبعة أبناء: الابن البكر الأول Lawalo، كان قد رحل من المدينة المقدسة واستقر في الماندينج، وكان للأول ابن يُدعى لاتال كلابي Latal Kalabi، وهذا بدوره له ابن يدعى دامال كلابي Damal Kalabi، وهذا الأخير له ابن هو لاهيلاتول كلابي Lahilatoul Kalabi.

وكان لاهيلاتول كلابي هو أول أمير أسود ذهب إلى مكة للحج، وفي طريق العودة كان قد نهب من عصابات الصحراء، وشنت رجاله، ومات البعض من العطش، لكن الله العلي القدير أنقذ لاهيلاتول كلابي لأنه كان رجلاً عادلاً. فقد ابتهل إلى الله، فظهر له الجن واعترفوا به ملكاً. وقد استطاع الملك لاهيلاتول كلابي وبعد سبعة أعوام من الغياب - وبفضل من الله العلي القدير - يعود إلى الماندينج، حيث لم يكن يتوقعه أحد قط.

كان لدى لاهيلاتول كلابي ابنان: البكر هو كلابي بومبا Kalabi Bomba، والصغير هو كلابي دومان Kalabi Dauman. اختار الابن الأكبر الحكم الملكي، وحكم؛ أما الأصغر ففضل الثروة والغنى، وصار جذاً لكل أولئك الذين يذهبون من بلد إلى آخر بحثاً عن الثروة.

وكان لكلابي بومبا ابن يُدعى مامادي كاني Mamadi Kani، وكان ملكاً صيادا مثل ملوك الماندينج الأوائل، وهو الذي ابتكر

السيمبون Simbon^(٢) أى صافرة الصياد، ودخل فى اتصال مع الجن
فى الغابة والأدغال، ولم يخف هؤلاء سرا عليه، إذ كان محبوبا من
كوندولون نى سانيه^(٤) Kondolon Ni Sané.



خريطة الماندينج القديمة

- * المراكز الحضرية الكبرى الحالية
- ? مدن اختفت أو مواقع موضع شك
- مدن وقرى حالية
- ⊗ عاصمة سونجاتا

وكان أتباعه عديدين حتى إنه شكل منهم جيشا، صار خطيرا، كان يجمعهم دائما في الدغل يعلمهم فنون الصيد والقنص، وهو الذي كشف للصيادين عن الخصائص الدوائية للأعشاب الطبية التي تشفى الجروح والأمراض، وأصبح ملكا لبلاد مترامية الأطراف بفضل قوة أتباعه، وبهم غزا مامادي كاني كل البلاد التي تمتد من السوكاراني Saukarani حتى بوريه Bouré. وكان لدى مامادي كاني أربعة أبناء هم: كاني سيمبون Kani Simbon وكانينوجو سيمبون Kanignogo Simbon، وكابالا سيمبون Kabala Simbon وسيمبون باماري تانيو جو كيلين Simbon Bamari Tagnogo Kélin.

وكانوا جميعهم خبراء في فن الصيد وجديرين بلقب سيمبون. هذا هو أصل باماري تانوجو كيلين الذي اعتلى الحكم، كان له ابن هو امبالي نينيه M, Bali Néné، ولهذا بدوره ابن هو بللو Bello، ولهذا ابن هو بللو باكون Bello Bakön، ولهذا ابن أيضا هو ماغان كون فاتا Maghan Kon Fatta ويقال له Frako Maghan Keigu أي ماغان الجميل أو الوسيم.

وماغان كون فتا هو والد سونجاتا العظيم، الذي كان له ثلاث زوجات وستة أبناء: ثلاثة أولاد وثلاث بنات: وكانت زوجته الأولى تسمى ساسوما بيريتيه Sassouma Bérété، ابنة أحد المارابو^(*) الكبار،

^(*) المارابو Marabout هي أسر المتدينين، وأصلها عند أهل المنطقة من الموري Mouri أي رجال الدين (المترجمة).

كانت والدۀ كل من الملك دانكاران تومان Dankaran Touman والأميرة نانا تريبان Nana Triban، أما الزوجة الثانية سوجولون كيجو Sogolon Kedjou فكانت والدۀ سونچاتا وأميرتان سوجولون كولونكان Sogolon Kolonkan وسوجولون جامارو Sogolon Djamarou، أما الزوجة الثالثة فكانت من الكامارا Kamara وكانت تدعى نامانجيه Namandjé، وكانت والدۀ ماندينج بوري Manding Gory أو ماندينج باكارى Manding Bakary الذى كان أفضل صديق لأخيه سونچاتا.

الهوامش:

(١) (مانينكا- مالى Maninka- Mali) - يُسمى سكان بلاد الماندينج بالمانينكا أو الماندينكا، ومالى ومالينكيه Mali et Malinké هو تحريف "للبل" Peulh لغة الماندينج والماندينكا. وكلمة مالى Mali بالمالينكية تشير إلى سيد قسطة، ولا يستبعد أن مالى كانت الاسم الذى أطلق على إحدى عواصم الأباطرة، وتدل إحدى المأثورات أن سونجاتا قد تغير إلى مالى "Mali" فى السنكارى "Sankari"، أليس من المثير للدهشة أن نجد قرى فى بلاد الماندينج القديمة تحمل اسم "مالى" Mali. ويمكن أن يكون هذا الاسم قديما اسما لمدينة كبيرة، كما توجد قرية تسمى ماليكوما Malikoma أى (مالى التاسعة) وذلك فى بلاد الماندينج القديمة.

(٢) (بلال ومحمدو Bilali et Mohammadou) - وكما كان يحدث فى الأسر المسلمة فى العصور الوسطى، كان همُ أباطرة مالى أن يرتبطوا بأسرة النبی أو على الأقل إلى أحد كان قريبا من "النبي" "Nabi".

وفى القرن الرابع عشر، نرى مانسا موسى Mansa Moussa يعود إلى بلاد الماندينج بعد أدائه فريضة الحج، ومعه ممثلون للقبيلة العربية قریش (القریشيين Qoréichites) (قبيلة محمد) ليضفى بركة نبى الله Prophète d`Allah على إمبراطوريته.. وبعد كانكون موسى

Kankon Moussa قلده العديد من أمراء الماندينج، وعلى وجه الخصوص أسكيا محمد Askia Mohamed في القرن السادس عشر.

(٣) سيمبون Simbon السيمبون حرفيا هو صافرة الصيد، والكلمة أيضا نعت شرفي للاحترام تستعمل لتمييز الصياد العظيم. ويطلق (سيمبون سي Simbon Si) على السهرة بجوار المتوفى التي ينظمها الصيادون في منطقة ما تكريما لزميلهم المتوفى.

(٤) كوندولون Kondolon هي إلهة الصيد، ولها رفيق لا ينفصل عنها هو سانيه Sané، وهاتان الإلهتان دائماً الارتباط ببعضهما، ويتضرع الناس لهما كنديين وعلى نفس المستوى من التضرع، هذه الإلهة المزدوجة لها خاصية الوجود في كل مكان، وحينما تظهر لصياد، فغالبا يلقي فريسته، ويتوجب على هذه الإلهة المزدوجة أن تحرس الدغل والغابة، وهي أيضا رمز للاتحاد والمحبة، ولا يجب أن نتضرع إليها بطريقة منفصلة، فإن ذلك يتسبب في التعرض لعقوبات شديدة القسوة. وهما أحيانا يتنافسان في البراعة والحدق، لكنهما لا يختلفان مطلقا.

وفي الهامانا (كوروسا) يُعند إلى مامادي كاني Mamadi Kani، قسم يؤديه الصياد قبل أن يستقبله سيمبو Simbou وإليكم القسم:

١ - هل تريد إرضاء سانيه ورفيقته كوندولون قبل أبيك (أى أنه يجب إيثار السيد سيمبون حين تكون فى مواجهة أمر من هذا وأمر من الوالد).

٢ - هل تعلم أن الاحترام لا يراد به العبودية، وعليك أن تكن احتراماً وخضوعاً لسيدك سيمبون على الدوام.

٣ - هل تعلم أن الكولا جيدة، وكذا للدخن، وأن العسل حلو.. إلخ فقدمها لسيدك.

إذا كانت الإجابة بالإيجاب.. فالمتدرب على الصيد سوف يُقبل.

وفى بعض مقاطعات سيغيرى، ينسب هذا (القسم) إلى الله-مامادى Allah-Mamadi الذى لم يكن ملكاً.

المرأة العجل (*)

كان قد ذاع صيت ماغان كون فاتا Maghan Kon Fatta أبا لسونجاتا فى كل البلاد لوسامته، بل كان أيضا ملكا طيبا محبوبا من كل الشعب. وفى عاصمته نيانيا Nianiba ^(١) كان غالبا ما يهوى الجلوس تحت شجرة القابوق الكبيرة التى تشرف على قصره فى كانكو Canco، لقد حكم ماغان كون فاتا منذ مدة طويلة، وكان ابنه الأكبر دانكاران تومان Dankaran Touman قد بلغ العاشرة من العمر، وهو الذى كان يأتى للجلوس بالقرب من والده على جلد الثور.

وحدث ذات يوم، حين كان الملك يجلس كعادته تحت الشجرة تحيط به حاشيته، أن رأى شخصا قادما باتجاهه يرتدى زى الصيد: يضع السروال المشدود، مما يرتديه المحظيون لدى إلهة الصيد كوندولون وقرينها سانيه، وقميص قد خيط بالنقود الصدفية والتى تفصح عن مهارته فى فن الصيد، اتجه الحضور جميعهم نحو القادم المجهول، الذى كان يحمل قوسا وقد صقل من الاستعمال ويومض فى ضوء الشمس. تقدم الرجل حتى بلغ مجلس الملك الذى كان قد تعرف عليه من وسط حاشيته، انحنى وقال له: "أحييكم يا ملك

(*) المراد عجلا وحشيا.

الماندينج، أحبيكم جميعا يا أهل الماندينج، أنا صياد أتعقب الفريسة، وقادم من سانجاران Sangaran وقد قادتني إلى هنا ظبية صغيرة عنيدة، قادتني إلى حيث جدار مدينة نيانيا، وببركة سيدى سيمبون العظيم أصابتها أسهمى. ورقدت ليس يبعد عن أسواركم، وكما يملى الواجب، يا ملكى، جئت لأقدم لكم نصيبيكم"، وأخرج ساقا من حقيبته الجلدية، عندئذ أمسك نيانكومان دوو GnanKouman Doua راوى الملك بالساق وقال: "أيها الغريب، مهما كنت، فأنت ضيف الملك، لأنك احترمت التقاليد، هيا لتأخذ مكانك بجانبنا على الحصير، فالملك سعيد لأنه يحب الرجال العادلين"، وافق الملك بإيماءة من رأسه، كما وافقت حاشيته جميعا، واستطرد الراوى بلهجة أكثر حميمية: "أنت يا من قدمت من السانجاران بلاد نوى الحظوة لدى آلهة الصيد كوندولون وقرينها سانيه أنت يا من تعد دون شك أستاذا ضليعا فى العلم، ألا تريد أن تزودنا بمعارفك؟ ألا تريد أن تعلمنا بكلامك فلا شك أنت زرت العديد من البلاد".

وأوما الملك - الذى ظل صامتا - برأسه موافقا، وأضاف أحد أفراد الحاشية:

"إن صيادى السانجاران هم أفضل العرافين، فإذا شاء الأجنبى سيمكننا أن نتعلم منه الكثير.

وهم الصياد بالجلوس بالقرب من نيانكومان دوو، الذى ترك له مكانا فى طرف الحصير وقال:

- "يا راوى الملك، لست من الصيادين" الذين يتمتعون بالمهارة فى القول أكثر من العمل اليدوى.. لست حكاء أتتبا بالمستقبل، ولا أبغى إساءة استغلال سذاجة الناس الطيبين، وبفضل العلم الذى زودنى به أستاذى، يمكننى أن أزهو بأننى عراف بين العرافين.

وأخرج من حقيبته الجلبية "Sassa" (٢) اثنتى عشرة قطعة من الصدف وألقى بها على الحصير، واتجه الملك وحاشيته صوب "الغريب" الذى دلك بيده الخشنة الصدفات الاثنتى عشرة اللامعة، أسر نيانكومان دوا إلى الملك بملاحظته بأن "العراف" كان أيسر؛ حيث اليد اليسرى هى يد الشر، وفى فنون الكهانة يقال إن الأشول هو الأفضل، وهمهم الصياد ببعض الكلام غير المفهوم بصوت خفيض، وحرك بيده الأصداغ الاثنتى عشر وأعادها فأخذت أوضاعاً مختلفة وهو يفكر ملياً، وفجأة رفع عينيه وقال للملك:

- يا مليكى.. "العالم مليء بالغرائب والأسرار وكلها مخبأة، ولا نعرف سوى ما نراه، فشجرة القابوق تخرج من حبة صغيرة، وهى التى تتحدى العواصف، لا تزن أكثر من حبة أرز، والممالك مثل الأشجار، البعض يصير قابوقة والبعض يظل قزماً، تغطيه شجرة القابوق القوية بظلها. فمن ذا الذى يستطيع التعرف فى طفل على ملك عظيم قادم، إذ إن المصير العظيم للصغير، وكذا الحقيقة والكذب هى كلها ترضع من نفس الثدي؛ فليس هناك شىء أكيد، إننى أرى من هنا أيها الملك شخصين غريبين قادمين نحو مدينتكم.

وسكت، ونظر ناحية باب المدينة لبرهة، واتجه الحضور الصامت نحو الباب، وعاد العراف إلى أصدافه. وبيد ماهرة جعلها تلعب داخل راحة كفه ثم ألقاها... وقال:

- يا ملك الماندينج، المستقبل يسير بخطى حثيثة، ستخرج بلاد الماندينج من الظلام وستتألق نيانيا، فما هو هذا الضوء القادم من الشرق؟

- ورد نيانكومان دووا: أيها الصياد، كلامك غامض، سهل لنا التواصل مع كلامك، تحدث بلغة واضحة أى بلغة السافانا (٣) التى نعرفها.

- قال، لقد وصلت أيها الراوى، أنصتوا لرسالتى، أنصت أيها الملك.

لقد حكمت هذه المملكة التى أورثها إياك أجدادك، ولا تطمح سوى فى توريث هذه المملكة بتمامها وتوسعاتها لأبنائك، لكن وريثك الماغان الجميل لم يولد بعد.

أرى صيادين قادمين نحو مدينتكم، إنهما آتيان من بعيد تصحبهما امرأة: أه، هذه المرأة! إنها دميمة ومنفرة فهى محدبة الظهر مما يشوهها، وعيناها جاحظتان تبدوان وقد ركبنا فوق وجهها، أه من سر الأسرار، فهذه المرأة أيها الملك يجب عليك أن تتزوج بها، لأنها ستكون أم ذلك الذى سيعيد اسم الماندينج الخالد إلى الأبد،

سيكون الطفل سابع نجم، "والفاتح السابع للأرض"، وسيكون أقوى من
ذى القرنين.

لكن أيها الملك، وحتى يسوق القدر إليك هذه المرأة، لابد من
تضحية: عليك بذبح ثور أحمر كأضحية، لأن الثور قوى البنية،
فعندما تبلل دماؤه الأرض لن يجروا أحد أبداً على أن يقاوم مجيء
امرأتك. وهكذا، لقد قلت ما يجب على قوله، أن الأمر بين يدي الله
تعالى.

جمع الصياد أصدافه ورتبها في حقيبته وقال:

- "لست سوى عابر سبيل، يا ملك الماندينج، سأعود إلى
السانجاران.. وداعاً".

اختفى الصياد، ولم ينس كل من الملك نارى ماغان أو راويه
نيانكومان دوا الأقوال النبوية؛ فالعرافون ذوو بصر نافذ، وأقوالهم
ليست دائماً بصدد الحاضر؛ فالرجل متعجل والوقت طويل، ولكن
لكل شيء أوانه.

و ذات يوم كان الملك وحاشيته يجلسون كعادتهم تحت شجرة
القابوق الكبيرة في نيانيا، يتجاذبون كعادتهم أطراف الحديث، وفجأة
جذب أنظارهم غرباء يذفون إلى المدينة، نظر الملك ورجال البلاط
مندهمشين.

وجدوا صيادين شابين وسيمين ولهما طلعة بهية، يسيران
تسبقهما شابة، واتجها نحو بلاط الملك، وكان الرجلان يضعان سهامهما
من الفضة التي تومض على أكتافهم فالشاب الذي يبدو الأصغر سنا
كان يمشى فى رباطة جأش السيد سيمبون Maitre Simbon. ولما
وصل الغريبان على بعد خطوات من الملك، انحنيا تحية للملك،
وتحدث الأكبر قائلا:

- "تحى الملك ناريه ماغان كون فاتا وحاشيته، إننا قادمون
من بلاد دو "Do"، لكن أخى وأنا ماننكيان، نحن من قبيلة
التراوريين. قادنا الصيد والمغامرة إلى بلاد "دو" البعيدة (٤) التي
يحكمها الملك دو مانسا نيمو ديارا Do Mansa Gnemo Diarra اسمى
أولمبا Oulamba، وأخى أولانى Oulani، والشابة من بلاد "دو"، أتينا
بها كهدية للملك لأن أخى وأنا إرتأينا أنها جديرة بزوجة ملك.

حاول الملك وحاشيته عبثا أن يتفرسوا فى وجه الفتاة، فقد
ظلت جاثية على ركبتيها، مطأطأة الرأس، وعمدت إلى ترك وشاحها
يتدلى أمام وجهها، فإذا كانت الفتاة قد استطاعت إخفاء وجهها، فلن
تستطيع إخفاء التحجب الذى يشوه ظهرها وأكتافها، كانت قبيحة
الوجه، ذات دمامة شديدة، تُشاهد أفرعها ذات العضلات، وثدييها
المنتفخين، اللذين يدفعان بشدة مئزرها القطنى المتين المعقود تحت
إبطها تماما. تأملها الملك لبرهة. وأشاح ماغان الوسيم برأسه، ورمق
طويلا نيانكومان دوا ثم أطرق الرأس. فهم الراوى حيرة الملك.

- وقال: "أنتم ضيوف الملك. أيها الصيادان نتمنى لكم السلام في نيانيبا، وكل أبناء الماندينج ليسوا سوى شخص واحد. هيا تفضلا بالجلوس.. ارويا ظمأكما، وقصا على الملك؛ على إثر أية مغامرة غادرتما بلاد "نو" مع هذه الشابة.

وافق الملك بإيماءة من رأسه، ونظر الأخوان لبعضهما البعض، وبإشارة من الأكبر، تقدم الأخ الأصغر نحو الملك. ووضع على الأرض قنينة الماء البارد، التي كان قد أحضرها لهما أحد الخدم.

وقال الصياد: "سافرنا أخى وأنا من القرية للصيد، وذلك بعد مواسم الحصاد الكبيرة"^(٥) وقادنا تعقب الفريسة إلى أطراف بلاد "نو"، قابلنا صيادين، أحدهما جريح، وعلمنا منهما أن عجلا غريب الأطوار يزعج قرى "نو"، ويسبب ضحايا كل يوم، ولا يجرؤ أحد على الخروج من القرى بعد مغيب الشمس. وكان الملك "دو مانسا نيمو ديارا" قد وعد الصياد الذى يقتل العجل بأفضل جائزة. وقررنا أن نغامر، ولذا عبرنا إلى بلاد "نو" وبعين ساهرة تسللنا بحذر وتقدمنا، وعند شاطئ نهر، رمقنا سيدة مسنة، كانت تبكى، وتتحبب، وتتضور جوعا، ولم يحرص أى عابر بالتوقف عندها. لقد استحلفتنا بالله أن نطعمها، اقتربت منها متأثرا بدموعها، وأخرجت من حقيبتى بعض قطع القديد، وحينما شبعنا قالت:

- "أيها الصياد، أخلف الله عليك على قدر مساعدتى".

وحينما تهيأنا للرحيل، استوقفتنى.

- وقالت: "أعرف أنكما ستحاولان أن تجربا حظكما للقضاء على عجل "دو"، لكن اعلمنا بأن الكثيرين قبلكما قد لقوا حتفهم فى مغامرتهم، لأن نصالهم كانت واهنة قاومها العجل. أيها الصياد الشاب، إنك شجاع، وأنت من سينتصر على العجل.. فأنا العجل الذى تبحث عنه. لقد غلبنى كرمك، أنا العجل الذى روع "دو".. لقد قتلت مائة وسبعة من الصيادين.. وأصبت سبعة وسبعين.. وكل يوم أقتل أحد سكان بلاد "دو"، ولا يدرى الملك نيمو ديارا إلى أى من الجن يقدم أضحياته.

هاك أيها الشاب، خذ هذا المغزل، خذ البيضة هذه، واذهب إلى سهل أورانتامبا Ourantamba حيث أرعى محاصيل الملك، وقبل أن تستعمل قوسك، ستصوب على ثلاث مرات بهذا المغزل، بعدها سأكون عرضة للإصابة، سأسقط، سأنهض، سأتعقبك إلى السهل المجذب، ستلقى خلفك البيضة هذه، سيولد مستنقع كبير من الماء، وإن أتمكن من التقدم، وأنت عندئذ ستجهز على.

وكدليل على انتصارك، ستقطع ذيل العجل وهو من الذهب، وتقدمه للملك وتطالب بالمكافأة التى تستحقها.

أما أنا فقد أديت ما على، وعاقبت أخى ملك بلاد "دو" الذى حرمنى من نصيبى فى الإرث.

أمسكت بالمغزل والبيضة وأنا أطيّر فرحا، فاستوقفتني العجوز
بإيماءة منها قائلة:

- أيها الصياد: هناك شرط واحد.

- قلت بتلّيف: ما هو؟

- قالت إن الملك كان قد وعد بأن يزوج الفائز من أجمل بنات
"دو"، فحينما يتجمع شعب "دو"، ويطلبون منك اختيار من تريدها
زوجة لك، ستبحث في الجمع المحتشد، ستجد شابة صغيرة قبيحة،
أكثر دمامة تجلس بعيدا إلى شرفة، إنها دميمة إلى الدرجة التي لا
يمكن أن تتخيلها، وهي التي يتوجب عليك اختيارها، ويسمونها
"سوجولون كيجو الدميمة" أو كودوتو لأنها مقوسة الظهر ستختارها..
إنها قريني ستصبح امرأة فائقة إذا ما تملكته، أعطني وعدا بأن
تختارها أيها الصياد. أقسمت على ذلك بين يدي المرأة العجوز
واستأنفنا مسيرتنا.

كان سهل اورانتامبا على مسافة نصف يوم من هناك، وفي
الطريق رأينا صيادين يهربون، وينظرون إلينا بذهول شديد. كان
العجل على الطرف الآخر للسهل. وعندما رمقنا، انقض علينا
وقرونه متحفزة وقمت بعمل ما قالت به العجوز، وقتلت العجل،
وجدعت ذيله ورجعنا إلى مدينة "دو" وذلك مع دخول الليل^(٦)، ولذا
لم نمثل أمام الملك سوى في الصباح. وأمر الملك بدق الطبول، وقبل

أن ينتصف النهار كان أهالى البلاد قد اجتمعوا فى الميدان الكبير، وقد وضع جسم العجل المجدوع فى وسط الميدان، وأخذ الجمهور المهتاج يلعنه ويسبه، بينما يتغنون بأسمائنا بشكل متكرر، وحينما ظهر الملك، أطبق صمت عميق على الجمهور.

- قال الملك: لقد وعدت بتزويج أجمل جميلات بنات بلاد "نو" إلى الصياد الشجاع الذى خلصنا من الآفة التى داهمتنا. لقد مات عجل "نو" وإليك الصياد الذى قتله. إنتى أفى بوعدى أيها الصياد، هؤلاء هن بنات "نو"، اختر ما تراه.

وافق الجمهور بإطلاق صيحة عالية. كانت بنات "نو" يرتدين ملابس العيد طوال اليوم، والذهب يصدر بريقه من شعورهن، وكانت معاصمهن الضعيفة تعاني من ثقل الأساور الفضية، فلم يجتمع مثل هذا الجمال فى ساحة قط، مررت بزهو وأنا أحمل أمام جميلات "نو" جعبتى فوق ظهري اللاتى كن يضحكن لى وأسنانهن البيضاء مثل أرز بلاد الماندينج، لكننى تذكرت كلام المرأة العجوز، وقمت بعمل عدة دورات داخل الدائرة الكبيرة بينهما وأخيرا رمقت عن بُعد سوجولون كيجو فى شرفة، فاخترقت الزحام، وأخذت بيد سوجولون وجذبتها إلى وسط الدائرة. وقدمتها للملك قائلاً:

- أيها الملك "تيمو ديارا" هذه هى التى اخترتها من بين فتيات "نو"، إنها التى أريد أن تصبح امرأتى.

كان الاختيار غريباً، حتى إن الملك لم يستطع إخفاء الضحك،
وساد الضحك، واستغرق الناس في الضحك، واعتبرت مجنوناً،
وأصبحت بطلاً شاذاً وكان يتردد بين الحشد "يجب أن تكون من قبيلة
التراوريه كي تتصرف بهذا الشكل" (٧).

هكذا غادرنا أخى وأنا "دو" فى نفس اليوم تحت سخرية
الكونديين "Kondé". أراد ماغان الجميل، أو الملك ناريه أن يحتفل
بزواجه بكل الإجراءات المعتادة، وذلك حتى لا يجادل أحد فى حقوق
الابن الذى سيولد.

فقد اعتبر الصيادان بمثابة والدى سوجولون، وإليهما قدم
نيانكوبان دوا جوزة الكولا التقليدية، وحدد يوم الأربعاء الأول للقمر
الجديد يوماً للزواج وذلك بالاتفاق مع الصيادين، وأخذت القرى اثنتا
عشرة لبلاد الماندينج القديمة وكل الشعوب الصديقة علماً بذلك،
وتوافدت الوفود من كل صوب وحذب فى التاريخ المختار إلى نيانى،
أى مدينة ماغان كون فاتا.

وكانت سوجولون قد أقامت لدى إحدى عمات الملك من
العجائز، ولم تخرج قط منذ وصولها إلى نيانى، وكل الناس يرغبون
فى رؤية المرأة التى يجهز لها ناريه ماغان حفل الزواج الفخم هذا،
وهم يعلمون أنها ليست جميلة، واستيقظ حب الاستطلاع لدى الناس،
حيث كانت قد راجت آلاف النكات، وكان أغلبها من ساسوما بيرتيه
Sassouma Béréte الزوجة الأولى للملك.

وعند الفجر أعلنت الطبول الملكية عن الحفل، واستيقظت المدينة على صوت التام تام^(*) (جيمبي) Djembe التي تجاوب معها الناس من حي لحي، وعلت أصوات الرواة في أوساط الجموع الشعبية، ينشدون قصائد المديح للملك ناريه ماغان، ولدى عمّة الملك العجوز، كانت ماشطة نياني تقوم بتزيين شعر سوجولون كيجو، التي كانت قد افترشت الحصير، ووضعت رأسها على ساقى الماشطة، تبكى في هدوء، وطبقا للتقاليد فقد حضرت أخوات الملك للمزاح معها.

- وقالت إحداهن: هذا آخر يوم من الحرية، فمن الآن ستكونين امزأتنا.

وأضافت أخرى: عليك أن تودعي شبابك.

- وأضافت ثالثة: لن ترقصى في الميدان، ولن تثيري إعجاب الصبية، لقد ولت الحرية يا حلوتى.

لم ترد سوجولون بكلمة.. وكانت الماشطة تقول من آن لآخر:

- هيا كفى عن البكاء ستبدأ حياة أخرى، أنت تعرفين، ستكون حياة أجمل مما تتصورين، ستكونين أما، وستمتعين بالفرح حين تكونين ملكة وسط أبنائك، هيا ابنتى، لا تبالي بالأقوال السيئة لإخوة

(*) التام تام Tam Tam: تعرف محليا بطبلة جيمبي Djembe (المترجمة).

زوجك، وكانت راويات الأميرات من النساء يتغنين وينشدن باسم الزوجة الشابة وذلك أمام الدار.

وهناك كان الفرح قد بلغ ذروته في محيط الملك، واستحضرت كل قرية فرقة من الراقصين والموسيقيين، وكبار السن يقدمون الأضحيات في وسط الجمع، ويقوم الخدم بعمليات التقطيع، بينما يقف على أغصان شجرة القابوق الكبيرة كواسر كبيرة تتابع بأعينها هذه المجزرة.

كان الملك ناريه ماغان يجلس أمام قصره في وسط حاشيته يستمعون إلى موسيقى "البولون" Bolon، بينما كان دوا يقف بين كبار القوم ممسكا بيده رمحه الكبير، يغنى لحن ملوك الماندينج، والغناء والرقص يدور في كل القرى، وكان أعضاء الأسرة الملكية يؤدون واجبهم نحو العرس ويعبرون عن فرحتهم بتوزيع الحبوب والملابس بل والذهب، حتى الغيرة ساسوما بيريتيه اشتركت أيضا في هذه الحفاوة، بتوزيع الملابس الجميلة على الراويات.

وكان قد حل الظلام، وتوارت الشمس خلف الجبل، وحلت ساعة الإعداد لموكب الزفاف أمام دار عمة الملك، وهنا سكنت التام-تام، وكانت النساء العجائز أقارب الملك قد قمن بتحميم سوجولون وتعطيرها، وألبسها الملابس البيضاء، ووضعن شالا على رأسها.

سارت سوجولون في المقدمة، محفوفة بعجوزتين، وتبعها أقارب الملك وخلفهم جوقة بنات نياني الشابات وهن ينشدن أغاني

العروس، وكن ينظمن إيقاع أغانيهن بالضرب بالأيدى، وتراص
الفلاحون والمدعوون فى صفوف فى الفضاء ما بين منزل العمة
والقصر ليروا موكب الزفاف. وحين بلغت سوجولون بهو الملك
رفعها شاب من إخوته بقوة من على الأرض، وأخذ يجرى بها نحو
القصر، بينما تعلو أصوات الجمهور بالصياح.

ورقصت النساء طويلا أمام قصر الملك. وبعد بعض
المجاملات من أعضاء الأسرة الملكية، تفرق الجمهور بينما كان الليل
فى نزعته الأخير.

* * *

"ستكون امرأة فائقة إذا وصلت إلى امتلاكها" تلك كانت أقوال
امرأة "دو" العجوز، إلا أن قاهر العجل لم يستطع أن ينتصر على
الشابة، وهكذا فقط وبعد هذه الصدمة فكر الصيادان أولانى وأولامبا
فى إعطاء سوجولون إلى ملك الماندينج.

وعليه أراد الملك ناريه ماغان أن يكمل واجبه كزوج فى
الليل، إلا أن سوجولون دفعت هجمات الملك، وألح وصمم هذا
الأخير، إلا أن جهوده ذهبت هباء وفى الصباح الباكر وجد دوا
الملك فى حالة سيئة كمن عانى من هزيمة ثقيلة فسأله:

– ماذا بك يا مليكى؟

– أجاب الملك: لم أستطع أن أمتلكها، لقد أخافتنى هذه الشابة،
حتى إننى أشك أنها مخلوق بشرى، كنت كلما اقتربت منها بالليل،

كان جسمها يغطي بوبر طويل، وهو ما سبب لى رعبا شديدا! وكنت أدعو قرينى طوال الليل لكنه لم يستطع أن يخضع قرين سوجولون.

ولم يظهر الملك طوال اليوم، بل كان "دورا" هو الشخص الوحيد الذى يمكنه الدخول والخروج من وإلى القصر، وبدأت العاصمة نيانى وقد وقعت فى الحيرة، وهرعت النساء العجائز منذ البكور يبحثن عن بكارة العروس، ولكنهن طردن سرا، واستمر الحال هكذا أسبوعا..

وكان الملك ناريه ماغان قد طلب المشورة من بعض كبار "العرافين"، إلا أن كل الطرق عجزت عن إخضاع قرين سوجولون.

وذات مساء، والجميع يستغرقون فى النوم، استيقظ ناريه ماغان وأنزل حقيبته الجلدية من على الحائط، وجلس فى وسط الدار، وبعثر الرمل الذى كان بداخل الحقيبة على الأرض. وبدأ الملك فى رسم علامات غامضة على الرمل، يرسم، ويمحو، ويعيد الرسم. استيقظت سوجولون، كانت تعرف أن الرمل يتكلم، بل كانت شديدة الحيرة من رؤية الملك متيقظا فى جوف الليل.

توقف الملك ناريه ماغان عن رسم الإشارات، ووضع يده تحت ذقنه يفكر مليا فى معانى الإشارات، وقام فجأة. وانقض على سيفه المعلق فوق سريره وقال:

يا سوجولون يا سوجولون.. قومي.. أيقظني من منامي حلم،
ظهر لي الجن حامى ملوك الماندينج.. أننى أسأت فهم كلام الصياد
الذى قادك إلىّ، لقد كشف لي الجن عن المعنى الحقيقى. يا سوجولون
علىّ أن أضحي بك قدر منزلى، يتوجب أن يسيل دم عنراء من قبيلة
كونديه. وأنت العنراء الكوندية التى سافك القدر إلى منزلى.

- معذرة، علىّ أن أكمل مهمتى، سامحى اليد التى ستبعثر
دمك.

- قالت: لا، لا، لماذا أنا؟ لا أريد الموت.

- قال الملك: لا فائدة.. لست أنا من قرر ذلك.

وبيد من حديد أمسك الملك شعر سوجولون، فسيطر الرعب
عليها حتى غابت عن الوعي، أغمى عليها، وتصلب جسدها
الإنسانى، فلم يكن قرينها بداخلها فلما أفاقَت كانت قد صارت امرأة.
وحبلت سوجولون.. فى تلك الليلة.

الهوامش:

(١) تعترف كل الأدبيات أن قرية نيانى الصغيرة، كانت أول عاصمة للماندينج، وكانت مقر الملوك الأوائل، ويقال إن سونجاتا جعل منها مدينة كبيرة، كما كانت تُسمى أيضا نيانيا أى نيانى الكبيرة، إنها اليوم قرية صغيرة تضم بضع مئات من السكان وتقع على السانكارانى على بعد كيلو متر من حدود السودان^(*).

وفى الأغاني لسونجاتا، تحمل المدينة أيضا اسم نيانى- نيانى وهى تسمية للتفخيم (انظر دبلومتى فى الدراسات العليا).

(٢) Sassa- هى حقيبة الصياد، وهى نوع من القربة، ويمكن أن نميز منها عدة أنواع، وعموما يحمل الصيادون حقيبة صغيرة من أجل أحرارهم اللصيقة بهم.

(٣) اللغة الواضحة غاية الوضوح هى المالينكيه Malinké، فأبناء المالينكية لغتهم واضحة كبلدهم، والتى يحبون دائما أن يضعوها فى تناقض مع الغابة أى البلاد المظلمة.

(٤) دو "Do" يبدو أن بلاد دو هى بلاد سيجو Ségué الحالية، وتحدث الروايات عن "دو" كبلاد فى غاية القوة. وفى العصور

(*) مالى حاليا (المترجمة).

الحديثة ألحقت دو ببلاد كيرى Kiri ويقال كذلك "دو كرى Do
ni Kri"، والمقصود هى بلاد العشرة آلاف بندقية وذلك حسب
الروايات، وهذه قصيدة تمجد بلاد دو وترجمتها هى:

أنها بلاد المدن العشرة
حيث يحكم ما نسا أومالية كونديه
الجوهرة الثمينة من الجنة
"دو" "وكرى"

أرض البنادق ديارا
"دو" "وكرى"

(٥) فى غينيا العليا (ماندينج). يتم الحصاد الوفير للأرز فى شهرى
نوفمبر - ديسمبر، فالشباب الذين تحرروا بعد هذه الأشغال
الضخمة، يسافرون من القرى سواء للبحث عن قليل من الثروة.
أو لمجرد تذوق طعم السفر، وهم عادة ما يعودون قبل موسم
الأمطار الغزيرة خلال مايو - يونيو.

(٦) هى أسطورة التراوريه الديوباتيه Traoré el Dioubaté وطبقا
للتراث فإنه عند موت العجل حدثت فرقة بين التراوريه
الديوباتيه. وكان الشقيقان أولاتى وأولامبا من التراوريه، فلما
قتل الأخ الأصغر العجل، ألف أخوه الأكبر - فى التو - أغنية
للمنتصر قال فيها: "أخى، إذا كنت راوياً فلن يقاومك أحد؟ وهى

تقال بالمالينكية "Koro Toun Baké Djéli à Dian bagaté" وصار التعبير Dian- Baga- te هو، "Diabaté" وبالتحريف صار Dioubaté ولهذا فالرواة الديوباتييه هم أشقاء للتراورييه.

(٧) تراورييه وكونديه - يسخر الناس في "تو" من الصيادين اللذين فضلا الدميمة سوجولون على الفتيات الحسنات؛ ومنذ ذلك الوقت فإن كونديه وتراورييه صارا ساناخو "Sanakhou" أى أبناء عمومة في الدعابة أو المزاح.

الطفل الأسد

تطبعت المرأة سريعا، فالآن تنتزه سوجولون كيجو فى حرم القصر الملكى الفسيح نون حرج، وسرعان ما اعتاد سكان القصر على دمامتها. غير أن ساسوما بيرتيه، الزوجة الأولى للملك أظهرت عدم احتمالها ذلك. فهى لا تستقر فى مكانها أبداً، وتتألم عندما ترى الدميمة سوجولون تنتزه مزهوة بحملها فى القصر، وتتساءل عما سيصير إليه أمرها إذا ما حرم ابنها الذى يبلغ من العمر ثمانى سنوات من الإرث لمصلحة الطفل الذى ستضعه سوجولون. انصب اهتمام الملك على الأم القادمة، وعند عودته من الحروب يوفر لها أعظم نصيب من الغنائم. من ملابس جميلة، وحلى نادرة.

وراحت مشروعات سوداوية تقفز إلى ساسوما بيرتيه: فهى تريد قتل سوجولون، واستدعت فى سرية تامة - أكبر سحرة الماندينج. لكنهم جميعا اعترفوا بعجزهم عن مواجهة سوجولون، وبالفعل، وعند الغسق، تأتى ثلاث بومات لتجلس على سطح دارها لتؤرقها.. لقد كلت ساسوما من حربها وقالت فى نفسها:-

- إذن. سنى. عندما يولد هذا الطفل.

أكملت سوجولون عدتها، واستدعى الملك مُسنات الماندينج التسع إلى نيانى وبقين بجوار ابنة بلاد "نو". وذات يوم كان الملك

يجلس وسط حاشيته، حين قدم إليه من يعلنه بأن آلام الوضع داهمت سوجولون، فأخلى مجلسه من حاشيته عدا "تيانكومان دووا" الذى ظل إلى جواره. وكان يقال كأنها المرة الأولى التى يصير فيها أبا، لفرط ما كان الملك قلقا مضطربا. وخيم السكون التام على القصر. وحاول "دووا" بجيتاره وحيد الوتر أن يُسرّى عن صاحب الجلالة لكن بلا جدوى بل كان عليه إيقاف هذه الموسيقى التى أغاضت الملك. وفجأة أظلمت السماء وظهرت من الشرق سحب ضخمة حجبت قرص الشمس، رغم أنه كان وقت فصل الجفاف. بدأ الرعد يزمجر، ومضات برق سريعة تهتك الغمام، وبدأت الأمطار تسقط بقطرات غليظة، بينما تهب ريح مخيفة، وظهر وميض مصحوب بزمجرة شديدة من ناحية الشرق، أضاء السماء كلها، حتى وقت المغيب.

ثم توقف المطر، ولاحت الشمس! فى هذه اللحظة خرجت واحدة من المسنات من دار سوجولون! جرت نحو البهو وأخبرت ناريه ماغان أنه صار أبا لطفل ذكر.

لم يحرك الملك ساكنا، بدا كالمخبول، ونهض دووا حين فهم انفعاله وأشار إلى اثنين من العبيد كانا لا يزالان يقفان بالقرب من الطبله Tabala الملكية: وتسارعت دقات الطبل الملكى تعلن للماندينج ميلاد الابن، وردت عليها التام- تام فى القرى. وفى نفس اليوم كان كل شعب الماندينج قد علم بالنبأ السار. وتتابع صيحات الفرح من جوف الصمت المطبق الذى كان سائدا، وتوافد على القصر أولئك

الذين يحملون "التام- تام" والطبل الصغيرة والموسيقيين في نيانى.
ومر الانفعال الأول للملك ونهض، ولدى خروجه من البهو قابله
صوت نيانكومان دووا والذي قال بحرارة:

- أحبيك أيها الأب أحبيك أيها الملك ناريه ماغان، أحبيك يا
ماغان كون فاتا، أحبيك يا فراكو ماغان كين Frako Maghan
Keign، لقد ولد الطفل الذى ينتظره العالم. يا ماغان، يا أيها الأب
السعيد، أحبيك لقد ولد الطفل - الأسد، الطفل- العجل. لقد جعل الله
على القدير الرعد يزمجر، والسماء أنارت والأرض ارتعدت، وذلك
للإعلان عن مجيء الطفل للعالم أحبيك أيها الأب، أحى الملك ناريه
ماغان.

كان الرواة جميعهم هناك، وكانوا قد أعدوا ترتيلة للطفل
الملكى. وأفاض الملوك من كرمهم على الرواة مما زاد من بلاغتهم:
ووزع ماغان كون فاتا فى هذا اليوم عشرة مخازن من الأرز على
الشعب، كما لوحظ سخاء ساسوما بريتيه الذى لم يخدع أحدا، فهى
تتعذب سرا ولا تفصح عن ذلك.

ومنح المولود اسمه فى اليوم الثامن لولادته، وكان عيداً
عظيماً.. حيث أتى الناس من كل قرى الماندينج. وحمل كل شعب
من الجيران الهدايا للملك. ومنذ الصباح، وأمام القصر، تشكلت دائرة
كبيرة، تقف الخادومات فى وسطها يسحقن الأرز الأبيض ليصنعن منه

الخبز، بينما تتمدد عجول الأضحية تحت ساق شجرة القابوق الضخمة.

أما داخل دار سوجولون، فقد نزلت عمّة الملك الشعيرات الأولى للطفل، بينما قامت الراويات المذودات بمراوح ضخمة، بإنعاش الأم الممّدة في استرخاء على وسائد لينة ناعمة الملمس.

كان الملك في بهوه، وخرج، يتبعه دوا، صمت الجمهور وصاح "دوا":

- سيطلق على طفل سوجولون اسم "ماغان"، وهو من اسم والده، ومارى جاتا وهو اسم لم يحمله أمير فى الماندينج، وسيكون ابن سوجولون أول من يحمل هذا الاسم.

وفى الحال تنادى الرواة باسم الطفل، وبدأت "التام- تام" تدق من جديد، وعادت عمّة الملك التى كانت قد خرجت لسماع اسم الطفل، عادت إلى السكن وهمست بالاسم المزبوج فى أنن المولود الجديد وهو ماغان ومارى جاتا وذلك حتى يتنكرهما.

انتهى الاحتفال بتوزيع اللحم على رؤساء الأسر، وتفرق الحشد مسرورين، أما الأهل الأقربون فقد دخلوا واحدا تلو الآخر إلى دار الأم لإبداء الإعجاب بالمولود الجديد.

الطفولة

لله أسرار، التي لا يقدر على كشفها أحد. ستصبح ملكا، ليس في وسعك شيء. ولن يسعك أن تفعل شيئا ستكون شقيا فكل يمضي في طريقه المرسوم، ولا يمكنه أن يغيره أبدا.

كانت طفولة ابن سوجولون بطيئة متناقلة وصعبة، كان لا يزال يحبو على أربع وهو في سن الثالثة، بينما كان الأطفال في نفس سنه سبقوه في المشي، لم يكن يتمتع بأى قسط من جمال والده الأخاذ، والده ناريه ماغان. رأسه ضخمة لدرجة يبدو فيها جسمه وقد عجز عن حملها. ذو عينين متورمتين يفتحهما عن آخرهما حين يدلف أحد إلى دار أمه. كان قليل الكلام، يقضى الطفل الملك طوال يومه جالسا وسط الدار، وعندما تخرج أمه، يحبو على أربع يفتش في القناني بحثا عن غذاء، فقد كان شرها بدرجة كبيرة^(١).

كانت الألسنة اللاذعة قد بدأت في اللمز: أى طفل هذا ذي السنوات الثلاث ولم يخط خطواته الأولى؟ أى طفل هذا ذي السنوات الثلاث الذى يزعج والديه بسبب نزواته وتقلباته المزاجية؟ أى طفل هذا ذو السنوات الثلاث ولا يدخل السرور على أهله لحماقته فى الكلام؟ وهكذا كان ينادى على الطفل سوجولون جاتا بحيث يُسبق اسمه باسم أمه.

كان سوجولون جاتا مختلفا تماما عن أترابه في سنه، يتكلم قليلا، ولم تتبسط أسارير وجهه العابس قط عن ابتسامة، وكان يقال إنه يفكر، يزعجه كل ما يتسلى به الأطفال في سنه. وغالبا ما كانت سوجولون تأتي بهم على مقربة منه كي يرافقه، إنهم يمشون. وكانت الأم تأمل أن جاتا حينما يرى زملاءه يسيرون على أرجلهم سيحاول أن يمشى مثلهم، لكن لم يحدث شيء، زد على ذلك أنه كان ينهال بالضرب بكلتا يديه القويتين على الأطفال المساكين، لذا لم يكن أحد يبغي الاقتراب منه.

كانت الزوجة الأولى للملك هي الأولى في شمانتها بإعاقه سوجولون جاتا، حيث بلغ ابنها دانكاران تومان الحادية عشرة.. كان صبيا جميلا، حيويا، يقضى اليوم في الجرى في القرى مع أترابه، بل كان قد بدأ مبادرته في الدغل حيث كان الملك قد أمر بأن يصنع له قوسا. وذهب خارج المدينة يمارس عملية الرماية مع أقرانه. كانت ساسوما سعيدة وتحترق سوجولون لأن ابنها لا يزال يحب أرضا، ولما كانت هذه الأخيرة تمر بمنزلها كانت تصيح:

- تعال.. أيها الابن.. امش.. اقفز، أسرع، فالجن لن يصنعوا لك الخوارق. إننى أفضل ابنا يسير على ساقيه، من أسد يحبو على الأرض! هكذا كانت تتحدث. أما إذا مرت سوجولون أمام بابها فتكون هناك إيماءات صريحة ثم تتفجر ضاحكة وبهذا الضحك الشيطاني تعرف امرأة غيرة كيف تتلاعب به جيدا.

لقد أثقل عليها عجز ابنها، لقد استعملت سوجولون كيجو غاية موهبتها في السحر لكي تمنح القوة لساقى ابنها، وكذا الأعشاب الأكثر ندرة لم تكن تؤتى فائدة. حتى أصاب اليأس الملك نفسه.

ولما كان الملك قد نفذ صبره انفصل رويدا رويدا وكف عن النظر في الأمر، واستمر نيانكومان دوا في تذكير الملك بكلام الصياد وحبلت سوجولون من جديد، استبشر الملك أن تتجب له ابنا.. لكنها وضعت بنتا، ومنحوها اسم كولونكان Kolonkan، كانت شبيهة بأمها، لم تحظ بشيء من جمال أبيها.

إن الملك الذي فترت همته، منع سوجولون من الذهاب لمنزله. وعاشت لبعض الوقت شبه مغضوب عليها. وتزوج ناريه ماجان من ابنة أحد حلفائه هو ملك الكامارا Kamara وكانت تدعى نامانجيه Namandjé، ذات جمال أسطوري، وضعت طفلا بعد عام. واستشار الملك العرافين حول مصير هذا الطفل، وأجابوه بأن ابن نامانجيه سيكون الذراع الأيمن لملك قوى، وخلع الملك على المولود الجديد اسم بوكارى Boukari، ونودي عليه بعد ذلك بماندينج بوكارى أو ماندينج بورى Manding Bory.

وقع ناريه ماجان في حيرة كبيرة، ترى هل طفل سوجولون الكسيح هو ذاك الذى أعلن عنه الصياد العراف؟

- قال نيانكومان دوا: إن لله العلى القدير أسرار، مضيفا من قول الصياد العراف: "إن شجرة القابوق تخرج من حبة صغيرة".

و ذات يوم ذهب الملك ناريه ماغان إلى نون فيارى Noun
Fairi الحداد، العراف فى نيانى، كان كهلا أعمى، استقبل الملك فى
بهوه الذى كان يستعمله كورشة، وأجاب عن سؤال الملك:

- عندما تنبت الحبة، لا يصير نموها دائما سهلا، فالأشجار
الكبيرة تنمو ببطء، لكنها تضرب بجذورها بعمق فى الأرض.

- وتساءل الملك: هل تنبت البذرة بالفعل؟

- أجاب الحداد العراف الأعمى مؤكدا أن النمو لم يصير
سريعا بعد كما ترغب آه!! يا له من رجل قد نفذ صبره!!

هذه المقابلة، وكذلك ثقة دوا فى مستقبل ابن سوجولون،
قدمتا للملك الأمان. ورغم الحزن العميق لساسوما بيريتيه، أعاد
الملك سوجولون إلى حظيته، وسرعان ما ولدت بنتا ثانية وأطلق
الملك عليها اسم جامارو. غير أن نيانى العاصمة ظلت لا تتحدث
سوى عن الابن الكسيح لسوجولون. إنه الآن فى السابعة من عمره
ولا يزال يحبو على الأرض لكى ينتقل من مكان لآخر، وعلى الرغم
من تعلق الملك بسوجولون فإنها كانت فى حال من اليأس.

لقد صار الملك ناريه ماغان كهلا وأحس أن أجله قد دنا،
وصار دانكاران تومان ابن ساسوما الآن فتى جميلا.

و ذات يوم استدعى الملك ناريه ماغان، مارى جاتا، وتحدث
إلى الطفل كمن يتحدث مع شخص كبير قائلا له: يا مارى جاتا لقد

كبرت سنا وأوشك ألا أكون بينكم، لكن قبل أن يخطفنى الموت أردت أن أقدم لك الجائزة التى يقدمها كل ملك لمن يخلفه. فى بلاد الماندينج لكل أمير راوٍ. فأب دووا كان راوى أبى، ودووا هو الراوى الخاص بى، وابن دووا بلّا فاسيكه Balla Fasséké سيكون راويك. كونا منذ الآن صديقين لا تفترقان: فمن فمه ستتعلم تاريخ أجدادك. ستتعلم منه فن حكم بلاد الماندينج حسب المبادئ التى أورثها لنا أجدادنا، لقد أدبت واجبى، أدبت كل ما يجب على ملك الماندينج أدائه. سأسلمك مملكة مترامية الأطراف وسأترك لك حلفاء ثقة، وهكذا يكتمل مصيرك. لكن لا تنس أبداً أن نيانى هى عاصمتك وأن أرض الماندينج هى مهد أجدادك.

أما الطفل الذى بدا أنه فهم كل معانى كلام الملك فقد أشار إلى بلّا فاسيكه بالاقتراب وجهاز له مكانا فوق جلد العجل حيث كان يجلس وقال:

– يا بلّا.. ستكون راوي!

– أجاب بلّا، نعم يا ابن سوجولون.. إن شاء الله.

وتبادل الملك ودووا النظرات حيث لمعت الثقة فى العيون.

المواضع:

(١) كانت شراسته أسطورية أيضا، ويربط البعض هنا هذا باسمه: صون جاتا Soun- Djata (Son= حرامى أو لص، Djata= أسد) ويقال إنه كان يغير على كل دار.

وفى رواية أخرى (وهو ما أوافق عليه) فإن اسم سونجاتا يأتى من الإدغام بين اسم الأم سوجولون الموضوع أمام اسم الابن (جاتا) وهى ممارسة قائمة لدى المالينكية، وهو ما ينتج عنه سوجولون جاتا- سو- أن- جاتا. والنطق الصحيح هو سونجاتا وذلك فى بلاد المالينكية.

صهوة الأسد

بعد هذا اللقاء الذى تم بين ناريه ماغان وابنه، قضى الملك نحبه، ولم يكن ابن سوجولون قد بلغ من العمر سوى سبع سنوات. اجتمع مجلس الكبار فى قصر الملك، ودافع دوا Doua دفاعا مجيدا عن وصية الملك، الذى احتفظ بالعرش لمارى جاتا. ولم يُعر المجلس أى اعتبار لرغبة ناريه ماغان هذه وساعدت مكائد ساسوما بيرتيه، فى إعلان ابنها دانكاران تومان ملكا على البلاد. وتم تشكيل مجلس للحكم حيث كانت فيه الملكة الأم فى عنفوان جبروتها. ومات دوا بعد ذلك بوقت قصير.

ولما كانت ذاكرة الناس ضعيفة، فلم يكن يجرى الحديث عن ابن سوجولون سوى بالاحتقار والسخرية: وكان يقال إنهم رأوا ملوكا عورا، وملوكا كُتعا، وملوكا عُرجا، لكن ملوكا بسيقان كسيحة فهو الأمر الذى لم يُسمع به قط. وأيا كانت عظمة المستقبل الذى ينتبأ به لمارى جاتا، فالعرش لا يمكن أن يعتليه عاجز الساقين، وإذا كانت الجن تحبه، فلتبدأ بأن تمنحه القدرة على استخدام ساقيه!

كانت تلك هى الثمرات التى تسمعها سوجولون دائما. وكانت الملكة الأم ساسوما بيرتيه هى مصدر هذا الكلام.

وكانت ساسوما بيرتيه التى صارت ذات النفوذ القوى، تضطهد سوجولون، التى كان المرحوم ناريه ماغان يفضلها عليها،

ففتها وابنها فى فناء خلفى للقصر. لقد أصبحت أم ماري جاتا تسكن الآن دارا قديمة كانت ساسوما تستعملها كدار للمخلفات من قبل.

لقد فتحت الملكة الأم الشريرة الباب على مصراعيه لكل الفضوليين، الذين أتوا لرؤية الطفل ذي السبعة أعوام، ولا يزال يحبو على الأرض. وكاد يتقاطر كل سكان نياني العاصمة على القصر لهذا الغرض، بينما سوجولون المسكينة تبكى وهي ترى نفسها أضحوكة للعامة. واتخذ ماري جاتا- أمام جمهور المتطفلين مظهرا عنيفا. ولم تجد سوجولون عزاء لها سوى حب ابنتها الأولى كولوكان والتي كانت تمشى وهي ذات أربعة أعوام. وبدا أنها فهمت كل مصائب أمها، وإذا كانت تساعد في الأعمال المنزلية، وأحيانا كانت ترعى أختها جامارو التي لا تزال صغيرة، حينما كانت أمها سوجولون تتفرغ لأعمالها.

عاشت سوجولون وأطفالها على بقايا الملكة الأم، وركنت إلى حديقة صغيرة خلف القرية كانت تقضى فيها معظم أوقاتها، تعتنى بأبصالها ومزروعاتها. وذات يوم أحست بحاجتها إلى الخردل والتوابل فذهبت للملكة الأم تلح في طلب بضعة أوراق من البواباب.

- وأجابتها ساسوما الشريرة هاك.. لدى ما يملأ الإناء، اخدمي نفسك أيتها المرأة المسكينة! أما أنا، فابنى فى سن السابعة كان قد عرف المشى، وهو الذى يذهب ليجمع لى أوراق البواباب..

خذى أيتها الأم الشقية، فابنك لا يطاول ابنى! ثم ضحكت هازئة، ذلك
الهزء القاسى الذى يعبر منك اللحم ليخترق العظم.

فى هذا الموقف صارت سوجولون وقد أضناها الألم. لم تكن
تعتقد قط أن الحق قد يمكن أن يكون بهذه القوة لدى كائن بشرى.
وخرجت من عند ساسوما وفى حلقها غصة، وكان مارى جاتا يجلس
أمام دارها، على ساقيه العاجزتين، يأكل بهدوء من الوعاء. انفجرت
سوجولون منتحبة، فلم تعد تقوى على أن تتمالك، وأمسكت بقطعة من
الخشب وضربت ابنها قائلة:

- يا ابن الشقاء. ألن تسير قط! لقد كابدت وتحملت أكبر إهانة
فى حياتى بذنبك، ماذا فعلت يا إلهى لتعاقبنى بهذا الشكل؟

أمسك مارى جاتا بقطعة الخشب وقال وهو يتطلع إلى أمه:

- أمى، ماذا حدث؟

- قالت صه، فلا يمكن لأحد أن يثار لإهانتى.

- قال: ماذا حدث؟

- ردت الأم: لقد أنزلتنى ساسوما بسبب أوراق نبات البواباب..
فقد كان ابنها يمشى وهو فى سنك، وكان يحضر لأمه أوراق
البواباب.

- أجاب مارى جاتا: خفى عنك ألمك يا أمى.. خفى ألمك.

- أجابت سوجولون: لا.. هذا أثقل مما احتمل.

- قال ماري جاتا: سأمشي اليوم.. اذهبي وقولي إلى الحدادين الذين كان أبي يعرفهم أن يصنعوا لي عصاة من الحديد على أن تكون ثقيلة قدر الإمكان. أتبعين، أمي أوراقا من البواباب فقط أم تريدين أن أحضر لك الشجرة كلها هنا؟

- أجابت آه يا ولدي! أريد منك - حتى تغسل عني هذا العار- أن تحضر لي الشجرة بجذورها هنا تحت قدمي أمام داري.

جرى بلافاسيكيه الذي كان هناك، نحو صاحب مسابك الحديد فاراكورو Farakourou وطلب منه عصا من الحديد. كانت سوجولون تجلس أمام دارها تبكي بهدوء، واضعة رأسها بين كفيها وكان ماري جاتا قد عاد إلى وعائه وما به من أرز وبدأ يأكل كأن شيئا لم يحدث، وكان يرمق أمه من آن لآخر بنظرة عطوفة، وهي التي كانت تهمس بصوت خفيض، قائلة: "أريد الشجرة كاملة، أمام داري، الشجرة كلها!"

وفجأة دوت ضحكة عالية خلف الدار، إنها ساسوما الشريرة التي كانت تقص مشهد الإذلال لإحدى خالمتها، وضحكت ضحكة عالية كي تسمعها سوجولون.

توارت سوجولون في الدار، وأخفت وجهها تحت الأغطية حتى لا تقع عيناها على هذا الابن العاجز "المستغرق في الأكل أكثر

من أى شىء آخر . ظلت سوجولون تتحبب وهى تخفى رأسها تحت
الأغطية، وجسمها ينتفض بعصبية. وجاءت ابنتها سوجولون جاما
رو للجلوس إلى جوارها قائلة لها:

- أمى، أمى، لا تبكى.. ماذا يبكيك؟

كان مارى جاتا قد انتهى من الأكل، وجاء حابيا على ساقيه،
ليجلس إلى جدار الدار، فقد صارت الشمس حارقة، فى أى شىء كان
يفكر؟ إنه وحده من يعرف.

كان أصحاب المسابك الملكية موجودين خارج أسوار المدينة.
كان يعمل هناك أكثر من مائة حداد، ومن هناك كانت تخرج السهام
والنبال والأقواس وأدوات المحاربين فى نيانى.

وحين طلب بلافاسيكيه صنع عصى حديدية قال له فراكورو:

- إذن.. هل أتى اليوم العظيم؟

- رد بلافاسيكيه / نعم.. اليوم هو يوم شبیه بالأيام الأخرى
لكن سيشهد ما لم يشهده يوم آخر.

كان صاحب المسابك فراكورو هو ابن نونفيارى العجوز
وكان عرافا مثل أبيه، وفى ورشته قضيب ضخيم من قضبان الحديد
التي صنعها والده نون فيارى وكان الناس يتساءلون فيم يستعمل هذا
القضيب، ونادى فراكورو على ستة من مساعديه وطالبهم بأن
يحملوا القضيب إلى دار سوجولون.

وحينما وضع الحدادون قضيب الحديد الضخم أمام الدار،
أحدث دويًا مخيفًا أيقظ سوجولون فزعة حيث كانت نائمة، وقال
بلاّفاسيكيه ابن نيانكومان دوا:

- هذا هو اليوم للعظيم، إنتى لتكلم إليك يا مارى جاتا، يا ماغان
يا ابن سوجولون! إن مياه نهر جوليا يمكنها أن تزيل دنس الجسد،
لكنها لا يمكنها أن تغسل العار. انهض أيها الأسد الصغير، ازار حتى
تعرف الأدغال أن لديها سيدا من الآن!

كان هناك أيضا مساعدو الحدادين. وكانت سوجولون قد
خرجت أيضا. نظر الناس جميعا إلى مارى جاتا، الذى زحف على
أربع، واقترب من قضيب الحديد، ثم ارتكز على ركبتيه ويد واحدة،
وباليد الأخرى رفع دون عناء قضيب الحديد وركزه رأسيا، وكان ما
زال جاثيا على ركبتيه، وأمسك بالقضيب بكلتا يديه. لقد خيم صمت
القبور على الحضور، أغمض سوجولون جاتا عينيه وتشبّت
بالقضيب، لقد تصلبت عضلات ذراعيه، وبضربة قوية ثبت قدميه
وانفصلت ركبته عن الأرض. كانت سوجولون كيجو مشدودة، تنتظر
إلى ساقى ابنها اللتين كانتا ترتعشان كأنهما تحت شحنة كهربائية، أما
جاتا فكان يتصبب عرقا حتى سال العرق على جبينه، وبجهد فائق
استرخى، وبضربة واحدة كان يقف على ساقيه، إلا أن قضيب الحديد
الضخم كان قد عُقف واتخذ شكل القوس.

وهنا أنشد بلاّفاسيكيه لحنا للقوس بصوت قوى:

"خذ قوسك يا سيمبون"

خذ قوسك واذهب

خذ قوسك يا سوجولون جاتا"

وحيثما رأت سوجولون ابنها واقفا، ظلت صامتة لبرهة ثم
فجأة وجهت شكرها لله الذي منح ابنها استعمال رجله قائلة:

"أى يوم هذا! إنه ليوم بهيج!

اليوم، يوم الفرح

يا الله العلى القدير

لم تمنحني شيئا أفضل من هذا،

إن فسوف يمشى ابنى

وقف ماري جاتا. وكأنه فى هيئة جندي يخلد للراحة، مستندا
إلى قضيبه الضخم يتصبب عرقا بحبات غليظة. لقد استتفرت أغنية
بلافاسيكيه القصر كله، وهرع الناس من كل صوب وحذب ليروا
ماذا جرى. وظل الجميع فى ذهول أمام ابن سوجولون، كما هُرعت
الملكة الأم. وحيثما رأت ماري جاتا واقفا على قدميه، ارتعدت
فرائصها، وحيثما نفخ نفخة قوية، عندها ترك ابن سوجولون العصا
تقع منه، لقد ابتعد الجمع، فقد كانت خطواته الأولى خطوات عملاق.
أما بلافاسيكيه فقد تعقب خطوات جاتا مشيرا إليه بإصبعه صائحا:

"مكان، مكان، افسحوا الطريق".

لقد مشى الأسد

أيتها الظباء، توارى..

ابتعدى عن طريقه"

وخلف "نيانى" كانت هناك شجرة بابواب صغيرة، كان الأطفال يأتون إليها من المدينة لجمع أوراقها لأمهاتهم، وبكل قوة الذراع انتزع ابن سوجولون الشجرة، ووضعها على كتفيه. وعاد بالشجرة إلى الدار، وألقى بها بالقرب من أمه وقال :

- أمى.. إليك أوراق البابواب.. إنها لك. ومن الآن ستأتى نساء نيانى ليتزودن بما يحتجن إليه. لقد مشى سوجولون جاتا.. ومنذ ذلك اليوم لم تهنا الملكة الأم براحة البال. لكن ماذا يمكن عمله أمام القدر؟ لا شيء؛ فالمرء يعتقد تحت أوهام معينة، أنه يستطيع أن يعدل الطريق الذى خطّه الله لكن ما يفعله يدخل فى النظام العلوى الذى لن يفهمه أبداً. لهذا ذهبت جهود ساسوما ضد ابن سوجولون أدراج الرياح، وكل ما فعلته كان من قدر الطفل. فبالأمس كان محتقرا وسخرية الجميع، واليوم صار ابن سوجولون محبوبا من الجميع. وهو الذى كان محتقرا، فالناس يحبون القوة ويخشونها. إن كل نيانى لا تتحدث سوى عن جاتا والأمهات تدفعن بأطفالهن ليصبحوا رفقاء صيد لجاتا، وليشاركوه لعبه كمن تردن استفادة أبنائهن من هذا المجد الوليد لابن المرأة العجل. لقد قفزت إلى ذاكرة الناس أقوال دوا يوم التعميد، إنهم الآن يحيطون سوجولون باحترام شديد، ويحبون فى أحاديثهم أن يضعوا تواضع سوجولون فى مقابل غرور وأذى

ساسوما الشريرة، ذلك لأن الأولى كانت زوجة وأما مثالية، لذا وهب الله عز وجل القوة لساقى ابنها، إذ يقال: "ما من امرأة تحب زوجها وتحترمه، وتكابد من أجل ابنها، إلا وستكافأ على ذلك يومًا ما. فكل إنسان هو ابن أمه: ومقام الطفل من مقام أمه، فلم يكن مثيرا للدهشة أن الملك دانكاران تومان كان كئيبيًا، حيث لم تبد أمه أننى احترام لزوجها الراحل، ولم تبد أى تواضع أمام الملك كما يتوجب أن تفعل كل امرأة أمام زوجها. إنهم يتذكرون لها مشاهد الغيرة وأقوالها الشريرة التى نشرتها فى حق ضرتها وابنها، وخلص الناس إلى: أن لا أحد يمكنه أن يعرف أسرار صنع الله تعالى، فالثعبان ليس له أرجل لكنه أسرع من غيره من الحيوانات من ذوات الأربع!

ومن يوم لآخر، زادت شعبية سوجولون جاتا، وكان يحاط بكوكبة من الصبية فى مثل سنه، ومنهم: فران كامارا Fran Kamara ابن ملك طابون Tabon وكذلك كامانجان ابن ملك سيبى، وغيرهم من الأمراء الذين كان آباؤهم قد أرسلوهم إلى بلاط ملك نيانى. وكان ماندينج بورى ابن نامانجيه قد سبقهم بالانغماس فى ألعابهم. كما كان بلا فاسيكيه يتابع سوجولون جاتا طوال الوقت، لقد تجاوز العشرين عاماً، وهو الذى يعلم الصبى ويقدم له المعارف حسب مبادئ الماندينج. ولا يدع أية فرصة دون أن يعلم تلميذه الصيد، أو فى المدينة، فقد التحق بعض أبناء "تيانى" بألعاب الطفل الملكى. إنه يحب الصيد بوجه خاص، ولذا صنع فاراكورو صاحب مسابك الحديد،

قوسا جميلا لجاتا، وكشف ماري جاتا عن خبرته في رمي القوس. وقام بالخروج للصيد مع أقرانه عدة مرات، وفي المساء يتجمع أبناء نياني يقفون في استقبال الصيادين الشبان بينما يغنى الجمهور نشيدا للقوس الذي ألفه بلأ فاسيكيه. إن سوجولون جاتا لا يزال صغيرا على حمل لقب سيمبون أى المعلم الصياد، وهو لقب لا يخلع سوى على كبار الصيادين الذين أثبتوا جدارتهم.

وكانت سوجولون كيجو تجمع أمام دارها كل مساء بين جاتا ورفاقه تقص عليهم قصص حيوانات الغابة، أخوة البشر الصامتين. لقد تعلم ابن سوجولون أن يميز بين الحيوانات: عرف لماذا كان العجل هو قرين أمه. وعرف أيضا لماذا كان الأسد هو حامى أسرة أبيه. لقد أنصت جيدا لتاريخ الملوك الذى قصه عليه بلأ فاسيكيه، وأنصت وهو مفتون بتاريخ ذى القرنين Djoulou Kara Naïni ملك الذهب والفضة العظيم، ذلك الذى أضاعت شمسُه نصف العالم^(١).

لقد أطلعت سوجولون ابنها على أسرار عدة فكشفت له عن اسم النباتات الدوائية، التى يجب أن يعرفها كل صياد عظيم. وهكذا بين أمه وراويه عرف الطفل كل ما ينبغى عليه معرفته.

لقد بلغ ابن سوجولون سن العاشرة، وصار اسم "سوجولون جاتا" ينطق بسبب سرعة النطق لدى المانينكا Soundyata سونجاتا أو سينجاتا Sondyata لقد صار شابا يافعا مليئا بالحيوية، إذ

تبلغ قوة ذراعيه ما يساوى قوة عشرة أذرع وكانت رأسه الكبيرة تثير
الرعب لرفاقه. وكان يتحدث بلغة أمرة مثل أولئك الذين يتوجب
عليهم القيادة. كما صار "ماندينج بوري" شقيقه أفضل صديق له. ففي
اللحظة التي يرى فيها جاتا، يظهر ماندينج بوري على الفور، لقد كانا
كرجل وظله. وكان قران كامارا، وكامانجو أفضل أصدقائه من
الأمراء الشبان، وبلا فاسيكيه يتبعه كملاك حارس.

وكانت شعبية سونجاتا قد بلغت مبلغا جعلت الملكة الأم تقلق
على عرش ابنها دانكاران تومان الذى كان يمكن أن يطاح به
بسهولة، وهو فى الثامنة عشر من عمره كان لا يزال يخضع لنفوذ
أمه وبعض العجائز من أصحاب المكائد. وكانت ساسوما بيرتيه تحكم
باسمه. وأرادت الملكة الأم أن تضع حدا لهذه الشعبية، وذلك بقتل
سونجاتا، وهكذا استقبلت فى إحدى الليالى فى دارها العرافات
العجائز التسع الكبار للماندينج. كن نسوة عجائز أكبرهن سنا
وأخطرهن كانت تدعى سوموسو كونكومبا Soumosso Konkomba،
وحينما أجلسن الشريرات التسع فى نصف دائرة حول سرير الملكة
الأم، قالت لهن:

- أنتن من تحكمن بالليل، أنتن قوى الظلام، أنتن اللاتى
تحفظن سر الحياة، وأنتن أيضا اللاتى تقدرن على إنهاء الحياة،
أيمكنكن مساعدتى؟

- قالت سوموسو كونكومبا: الليل مفعم بالقوة، أيتها الملكة..
أخبرينا ماذا يجب علينا فعله، وعلى من يتوجب أن نوجه السهم
القاتل؟

- قالت ساسوما: أريد التخلص من سونجاتا، لأن مستقبله
يتعارض مع مستقبل ابني، يجب قتله، فلا يزال هناك وقت، فإذا
نجحتن في ذلك أعدكن بجوائز عظيمة، وسأعطي كل واحدة منكن
- قبل أي شيء - بقرة وعجلها، واذهبين منذ الغد إلى المخازن
الملكية لتحصل كل واحدة منكن على مائة مكيال من الأرز ومثلها
من العلف.

واستطردت سوموسو كونكومبا: يا أم الملك إن الحياة لا
تتعلق سوى بخيط رفيع، لكن كل شيء هنا مترابط ببعضه ببعض،
فللحياة سبب والموت أيضا، وكلاهما ينسلخ من الآخر، وكراهيتك
أيضا لها سبب، وعملك أيضا يجب أن يكون له سبب.

- يا أم الملك الكل مترابط، فلن يكون لعملنا أثر، إلا إذا كنا
في خلاف معه، لكن ماري جاتا لم يسبب لنا ضررا، وسيكون من
الصعب إيذاؤه.

- لا بل أنتم في خلاف معه، أجابت الملكة الأم، لأن ابن
سوجولون سيكون كارثة علينا جميعا.

- قالت إحدى العرافات: الثعبان نادرا ما يعض القدم التي لا
تسير.

- أجابت: نعم لكن هناك ثعابين تهاجم كل الناس. دعى سونچاتا يكبر، سندفع ثمن ذلك جميعا. اذهبن غدا إلى بستان سوجولون وتظاهرن بجمع بعض أوراق النبات حيث يقوم مارى جاتا على حراسته، سترين كم هذا الولد شرير، فلن يعمل أى اعتبار لسنكن، وسيوسعكن ضربا.

- قالت إحداهن: يا لها من فكرة بارعة.

- لكن مصدر سخطنا هنا سيكون نحن أنفسنا، لأننا سنأخذ أشياء ليست ملكا لنا.

- قالت أخرى: سنعاود الجرم.. فإذا ما ضربنا ثانية، يمكننا أن نؤنبه لأنه شرير وبلا قلب. عندها سيتوفر لدينا السبب كما اعتقد.

- قالت سوموسو كونكومبا.. الفكرة بارعة، سنذهب غدا إلى بستان سوجولون.

- وهذا ما ستجدونه، قالت الملكة الأم وهى تضحك فرحة. اذهبن غدا إلى البستان وسترون أن ابن سوجولون شرير، وقبل ذلك اذهبن للمخازن الملكية، لتحصلن على ما وعدتكن به من حبوب، أما الأبقار وثيرانها فهى لكن منذ الآن.

أطاعت الشريرات العجائز.. اختفين تحت جناح الظلام الدامس. كانت الملكة الأم وحدها تتلذذ سلفا بالنصر، إلا أن ابنتها نانا تريبان استيقظت.

- تساءلت: أمي مع من كنت تتحدثين؟ أظن أنني سمعت أصواتا؟

- قالت الأم: نامي صغيرتي، ليس هناك شيء إنك لم تسمعي شيئا.

وفي الصباح، جمع سونجاتا رفاقه كعادته أمام دار أمه قائلا:

- ماذا سنصطاد اليوم من الحيوانات؟

- قال كامانجان، أريد أن نهجم الأفيال.

- وقال فران كامارا: وهذا رأيي أيضا، ذلك يسمح لنا بالذهاب بعيدا في الأدغال.

وغادرت المجموعة الشابة بعد أن ملأت سوجولون الحقيبة بالمواد الغذائية.

وعاد سونجاتا ورفاقه متأخرا إلى القرية، وأراد سونجاتا كعادته أن يلقي نظرة على بستان أمه. كان وقت الغسق، حيث وجد العرافات التسع اللاتي كن يقمن بالإغارة على أوراق نبات النيوغو Gnougou، لقد باغتهن، وتظاهرن بالهرب مثل لصوص أخذوا على غرة.

- قال جاتا: قفن، قفن، لماذا تهرين أيتها العجائز البائسات؟ هذا البستان ملكنا جميعا.

وبادر سونجاتا ورفاقه بملء القناني للعجائز بأوراق النباتات
(الخردل) والباننجان والبصل.

- وقال لهن سونجاتا: إذا احتجتن أوراق الخردل مرة ثانية..
أقبلن دون خوف أو وجل لتتزوجن من هنا بما تحتجن إليه.

- ردت إحدى الشريرات التسع: لقد جردتنا من السلاح.

- أضافت أخرى: لقد أدهشنا بطيبتك.. لقد أفحمتنا.

- قالت سوموسو: انصت يا جاتا.. لقد أتينا إلى هنا لنختبرك
فنحن لم نكن في حاجة إلى أوراق الخردل قط. لقد أدهشنا كرمك، لقد
أرسلتنا الملكة الأم لتتحدأك ونثير ضدك غضب قوى الظلام. لقد
عجزنا أمام ذلك القلب المليء بالطيبة، ونقول إننا قد قبضنا مائة
مكيال أرز ومائة أخرى من الذرة البيضاء، فضلا عما وعدتنا به
الملكة فلكل منا بقرة وعجلها.. أيها الابن.. ابن سوجولون.. سامحنا.

- رد جاتا: خذوها، ليس لدى رغبة فيها.. لقد عدنا من الصيد
أنا وأقراني.. وقد قتلنا عشرة أفيال سأعطى لكل واحدة منكن فيلا..
هاكم اللحم.

- نشرك يا ابن سوجولون!

- نشرك يا ابن العدل!

- سنسهر على رعايتك من الآن.. (قالت سوموسو
كونكومبا).

واختفت العرافات التسع تحت جناح الليل. واستأنف سونجاتا ورفاقه طريقهم إلى نيانى وعندما عادوا كان الليل قد أرخى سدوله.

- قالت سوجولون كولونكان، شقيقة جاتا الصغرى، هل كنت خائفا حقيقة؟

لقد سبين لك الخوف.. هؤلاء العرافات التسع!!

- رد سونجاتا: كيف عرفت ذلك.. قالها مندهشا.

- قالت: لقد رأيتهن في الليل وهن يتآمرن. لكنى كنت أعرف أنك لن تتعرض للخطر.

كانت كولونكان غارقة في فن الكهانة (العرافة)، وكانت تسهر على أخيها دون أن يرتاب في ذلك.

الهوامش:

(١) Djoulou Kara Naïni هو تحريف في الماندنجية لاسم Doul Kara Naïn نو القرنين، وهو الاسم الذي خلعه المسلمون على الإسكندر الأكبر، وفي كل تراث الماندينج. من المستحب كثيرا المقارنة بين سونجاتا والإسكندر، حيث يقال إن الإسكندر هو الفاتح ما قبل الأخير للعالم، وأن سونجاتا هو الفاتح السابع والأخير.

المنفى

كانت سوجولون أما حذرة، كانت تعلم كل ما يمكن أن تفعله
ساسوما لإيذاء أسرتها، وذات مساء، وبعد أن تناول الأطفال طعامهم،
جمعتهم وقالت لسونجاتا:

- لنرحل من هنا يا ولدى، إن ماندينج بورى، وجامارو
ضعفاء، فليس لهما فى خفايا الليل، وليس بعرافين، ستتجه ساسوما
بضرباتها إلى أخيك وأختك لعجزها عن إيذائك. فلنرحل من هنا،
وستعود لاحقاً، عندما تكبر، ستعود لتحكم، لأن مصيرك يجب أن
يتحقق فى بلاد الماندينج.

كان هذا هو قرار الحكمة: فماندينج بورى، ابن نامانجيه
الزوجة الثالثة لناريه ماغان، ليست لديه أية موهبة فى فن العرافة
والكهانة، وسونجاتا يحبه كثيراً، فقد احتضنته سوجولون منذ وفاة
والدته، ووجد سونجاتا فى أخيه غير الشقيق الخل الوفى. فالمرء
لا يختار أهله، لكننا يمكننا اختيار أصدقائنا. كان سونجاتا وماندينج
بورى صديقين حميمين حقاً، ومن أجل إنقاذ شقيقه قبل جاتا بالمنفى.

أعد بلا فاسيكيه - راوى جاتا - بدقة للرحيل، وكانت ساسوما
بيرتيه تراقب سوجولون وأسرتها.

وذات صباح جمع الملك داتكاران تومان، المجلس، وأعلن عن
عزمه إيفاد وفد رسمى لملك سوسو القوى، سوماؤرو كانتيه

Soumaoro Kante، فى مهمة خطيرة، لذا فكر فى بلاّ فاسيكيه، ابن
دووا راوى أبيه، ووافق المجلس على قرار الملك، وأسندت الرئاسة
لبلاّ فاسيكيه وتم تشكيل الوفد.

تلك كانت وسيلة بارعة فى اختطاف راوى سونجاتا الذى
أعطاه إياه والده. لقد كان جاتا فى مهمة صيد، ولما عاد فى المساء
أنبأته أمه سوجولون كيجو بالخبر. وكان الوفد قد سافر فى صباح
اليوم نفسه، وتملك سونجاتا غضب شديد.

- ما هذا أیخطفون منى الراوى الذى أعطاه إياى والدى!
لا فليعيدوا إلى راوى! قالت سوجولون لابنها: تمهل، دعه يفعل ما
يشاء، إنها ساسوما التى تتصرف هكذا!

إنها لا تعلم أنها تطيع أوامر عليا..

- تعال معى، قال سونجاتا لأخيه ماندينج بورى.

وخرج الأميران. دفع جاتا بقوة حراس بيت دانكاران تومان.
(ولما كان) لا يزال حائقا، لم يستطع النطق، وها هو ماندينج بورى
يتحدث:

- أخى دانكاران تومان، لقد انتزعت نصيبنا من الميراث،
فلكل أمير راو. لقد انتزعت بلاّ فاسيكيه، وهو ليس ملكك. إن بلاّ
أينما يكون فهو راوى جاتا، وحيث إنك لا ترغب فى وجودنا بجانبك
سنترك بلاد الماندينج، وسنذهب بعيدا!

- وسأعود، أضاف بقوة ابن سوجولون، سأعود، أسمعني؟

- أجاب الملك: أنت تعرف أنك سترحل لكنك لا تعرف ما إذا كنت ستعود.

- وكرر جاتا، سأعود، أسمعني؟

كانت اللهجة قاطعة، وسرت رعشة في جسم الملك "دانكاران تومان". ارتعدت كل فرائصه. وانصرف الأميران وهرعت الملكة الأم مذعورة فوجدت ابنها في حالة من الانهيار.

- أمي، سيسافر، وقال إنه سيعود. لكن لماذا يسافر.. أريد أن أعيد إليه راويه. لماذا يسافر؟

- أجل، سيبقى إذا كنت تريده. إذن تخلص له عن العرش. إنك ترتعد أمام تهديدات طفل في العاشرة من عمره! تنازل له عن مكانك. فأنت لا تقوى على الحكم، أما أنا فأريد العودة لقرية آبائي. لا يمكنني العيش في ظل استبداد ابن سوجولون. أريد أن أكمل أيامي بجانب آبائي وأهلي، وسأعلن أن لي ابنا يخاف أن يحكم.

لقد انتحبت ساسوما كثيرا، حتى إن دانكاران تومان قد أبان فجأة عن روح صلبة كالحديد. الآن يريد الموت لأشقائه. حسنا فليسافروا! لا يهم. ولن يقابلهم أبدا في طريقه. سيحكم، بمفرده، فالسلطة لا تحتمل الشراكة.

هكذا عرفت سوجولون وأطفالها النفي. ما أبأسنا! أننا نعتقد أننا نسيئ إلى مستقبلنا لكننا نعمل وفق قدرنا تماما. إن عملنا لا يصدر عنا، لأننا مأمورون.

ظنت ساسوما بيرتيه أنها انتصرت؛ لأن سوجولون وأطفالها هربوا من بلاد الماندينج!

لقد حرثت أقدامهم غبار الطرقات، وعانوا من الإهانات التي يشهدها أولئك الذين يغادرون وطنهم. كانت الأبواب موصدة في وجوههم، وطردهم الملوك من بلاطهم، لكن كل ذلك كان يصب في المستقبل العظيم لجاتا. لقد مضت سبع سنوات. وتعاقت سبع شتاءات، وتسلل النسيان إلى أرواح البشر، لكن الزمن كان يمضي بنفس القدر. تعاقت الأقمار في نفس السماء، والأنهار تجري في مستقرها لتكمل دورتها الدائمة. مضت سبع سنوات. وكبر سونچاتا. صار قويا عفيا، وأكسبته المصائب حكمة العقل. لقد صار رجلا. وأحست سوجولون بعبء السن والمسئولية يتقلان على كتفيها. بينما جاتا، تلك الشجرة النامية تتطلق نحو السماء.

* * *

لقد غادروا "تياني"، وتوقفت سوجولون وأبنائها في جيديبا Djedeba لدى الملك مانسا كونكون Mansa Konkon، العراف العظيم. كانت جيديبا إحدى المدن الواقعة على نهر الجوليبا على بعد

يومين من نيائى. استقبلهم الملك بحذر، لكن لأن الغريب له حق الضيافة أينما حل، فقد أنزلهم الملك فى حرمة الملكى. وفى خلال شهرين اندمج سونجاتا وماندينج بورى فى ألعاب أطفال الملك. وذات مساء كان الأطفال يلعبون أمام القصر فى ضوء القمر، قالت ابنة الملك التى لم تكن قد تجاوزت عامها الثانى عشر إلى ماندينج بورى:

أتعرف أن والدى عراف كبير.

- قال آه.... نعم قالها ماندينج بورى ببراءة.

- قالت: نعم! لكن كيف؟ أنت لا تعرفه؟ وأن قوته تكمن فى لعبة الورى Wori هل تعرف لعب الورى؟^(١)

- إن أخى هو أيضا عراف كبير.

- لكنه لا يرقى إلى قوة والدى دون شك!

- كيف؟ هل يلعب والدك بالورى؟

فى هذه اللحظة نادى سوجولون أبناءها، حيث أشرف القمر على المغيب،

- قال سونجاتا الذى كان يقف بعيدا: والدتى تتأدبنا نعال ماندينج بورى، أتحب ابنة مانسا كونكون إن صح ظنى؟

- قال: نعم يا أخى! لكن أعلم أنك لكى تقود بقرة إلى الحظيرة، يكفى أن تأخذ العجل.

-حقا فالبقرة تتبع مختطفها. لكن يجب الحذر. إذا كانت البقرة هائجة فويل للخاطف!.

عاد الشقيقان وهما يضربان الأمثال، فحكمة الرجال تحويها الأمثال. وحينما يمارس الأطفال ضرب الأمثال، فهي علامة على استفادتهم من مجاورة البالغين.

فى ذلك الصباح لم يخرج كل من سونچاتا وماندينج بورى من الحرم الملكى. كانا يلعبان مع أبناء الملك تحت شجرة الالتقاء.

وفى بداية ما بعد الظهيرة، استدعى مانسا كونكون ابن سوجولون إلى قصره. كان الملك يقيم فى تيه حقيقى، وبعد عدة دورات ولفات داخل أروقة القصر المظلمة، ترك أحد الخدم جاتا فى بهو ذى إضاءة خافتة. تلفت جاتا حوله، فلم يكن خائفا. فالخوف يدخل إلى قلب من يجهل مستقبله، لكن سونچاتا كان يعرف أنه كان يسير نحو مستقبل عظيم. لم يكن يعرف ما هو الخوف. وحينما اعتادت عيناه على شبه الظلام هذا، رأى سونچاتا الملك وهو يجلس فى ضوء معاكس على جلد كبير لعجل، كما رأى سونچاتا أسلحة جميلة معلقة على الحوائط، فتساءل متعجبا:

- أيها الملك مانسا كونكون.. إن لديك أسلحة جميلة! وأمسك بسيف وبدأ فى المباراة بمفرده ضد عدو خيالى، نظر الملك مندهشا إلى الطفل الخارق للعادة:

- قال الطفل: لقد استدعيتني .. أنا هنا. وأعاد السيف إلى مكانه.

- قال الملك لسونجاتا: اجلس! لقد اعتدت على دعوة ضيوفى للعب معى، سنلعب، سنلعب الورى، لكن لدى شروط ليست شائعة وهى: إذا فزت، وسأفوز، سأقتلك.

- رد جاتا: وإذا فزت أنا؟ قالها جاتا دون خوف.

- رد الملك: فى هذه الحالة سأعطيك كل ما تطلب، لكن لتعرف أنتى أفوز دائما.

- رد جاتا: إذا فزت: فلن أطلب منك سوى هذا السيف، مشيرا إلى السيف الذى كان قد جربه.

- قال الملك: موافق، أنت واثق بنفسك. أليس كذلك! وسحب الخشب الذى حفرته فيه عيون الورى. ووضع أربعاً من الحصى فى كل عين.

- وقال الملك: سأبدأ، وأخذ أربع من الحصى من إحدى العيون ووزعها وهو ينشد الكلمات:

لعبة الورى هى من ابتكار صياد

لا أجارى فى هذه اللعبة.

أنا أدعى "الملك المدمر

أخذ سونجاتا الحصى من إحدى الحفر وأنشد يقول:

قديمًا كان الضيف مقدسًا.

لكن الذهب كان بالأمس،

- وأنا من قبل الأمس

- زار الملك مانسا كونكون قائلاً: أحدهم خانني أحدهم خانني!

- قال سونجاتا: لا .. أيها الملك.. لا تتهم أحدا.

- إذن؟

- لقد رأيت عندك ثلاثة أقمار، إنك لم تدعوني قط إلى لعب

الوري، فالرب هو لسان الضيف، وأقوالى لا تعبر سوى عن الحقيقة
لأتني ضيفك.

والحقيقة هي أن الملكة الأم لنياني كانت قد أرسلت الذهب إلى
مانسا كونكان كي يقوم بقتل سونجاتا. "الذهب كان بالأمس"
وسونجاتا - سابق عن مجيء الذهب إلى بلاط الملك. والحقيقة هي
أن ابنة الملك قد أفشت السر إلى ماندينج بوري.

قال الملك المرتبك: إذن لقد فزت، لكن لن تحصل على ما
طلبت، وسأطردك من مدينتي!

- قال سونجاتا: شكرا على ضيافتكم لنا لمدة شهرين أيها
الملك، مانسا كونكان سأعود من جديد! استأنفت سوجولون وأطفالها
طريق المنفى مبتعدين عن النهر. واتجهوا صوب الغرب. راحوا
يطلبون الاستضافة لدى ملك طابون في البلاد التي تسمى اليوم فوتا

جالون Fouta Djallon، كان يسكن هذه المنطقة الكامارا الحدادون والجالونكيين. كانت طابون مدينة منيعة تتحصن بالجبال. وكان الملك حليفا لبلاط نياني من مدة طويلة، وكان ابنه فران كامارا أحد رفاق سونجاتا. وبعد رحيل سوجولون أعيد الأمراء رفاق جاتا إلى أسرهم.

كان ملك طابون قد هزم، ولا يريد أن يختلف مع ذلك الذي كان يحكم في نياني، فاستقبل سوجولون بلطف، وأشار عليها أن تسافر إلى أبعد ما يمكن. واقترح عليها بلاط واجادو Wagadou، حيث يعرف ملكها. وهناك بالفعل كانت قافلة من التجار على سفر إلى واجادو^(٢)، وأوصى الملك العجوز التجار بسوجولون وأبنائها، وقام بتأخير الرحيل لبضعة أيام ليسمح للأُم بأن تخذ للراحة من متاعبها.

وهكذا التقى سونجاتا وماندينج بوري بفرح مع فران كامارا، الذي قام بتواضع بعمل زيارات لهما إلى قلاع طابون، مما أثار فيهما الإعجاب بذلك الباب الحديدي العملاق. وزارا ترسانات الملوك. وكان فران كامارا سعيدا للغاية باستقبال سونجاتا. ولما جاء اليوم الحاسم يوم الرحيل، كان كامارا حزينا أشد الحزن، حيث كان قد دعاهما عشية السفر للقيام بجولة صيد وتحدث الشباب في الأدغال مثل الرجال.

- قال سونجاتا: حينما أعود إلى بلاد الماندينج، سأمر عبر طابون لاصطحابك، لنذهب معا إلى نياني.

- أضاف ماندينج بوري: من هنا إلى هناك سنكون قد كبرنا.

- قال فران كامارا: سيكون لي جيش طابون، فالحدادون والجالونكيون محاربون أشداء، وقد حضرت ذات مرة تجمع الرجال بأسلحتهم الذي ينظمه والدي مرة كل عام.

- سأجعل منك قائدا كبيرا! سنجوب بلادا عديدة، وسنكون الأكثر قوة. سيرتعد الملوك أمامنا مثل المرأة التي ترتعد أمام الرجل! هكذا تحدث ابن سوجولون.

استأنف المنفيون الطريق. كانت طابون تبعد كثيرا عن واجادو. وكان التجار طيبين مع سوجولون وأطفالها. وكان الملك قد زودهم بالمطايا. واتجهت القافلة اتجاه الشمال، تاركة بلاد كيتا إلى الشرق.

وفي الطريق قص التجار إلى الأمراء كثيرا من أحداث الماضي. وأبدى ماري جاتا اهتماما خاصا بالقصص التي تتناول الملك العظيم الحالى سوما ورو كانتيه، فقد كان بلا فاسيكيه قد سافر إليه - أي إلى سوسو - في وقد. وعرف جاتا أن سوما ورو ملك شديد البأس شديد الثراء، حتى إن ملك واجادو كان يدفع له جزية، كما كان أيضا ملكا فظا.

كانت بلاد واجادو بلادا جافة، تفتقر للمياه. وقديما كان "السيسيه" Cissé في واجادو هم الأمراء الأكثر بأسا، فهم ينحدرون

من سلالة "ذى القرنين" وهو ملك الذهب والفضة، لكن ومنذ نقض
السياسية عهد الأجداد بدأت قوتهم فى التناقص.

وفى زمن سونجاتا كان أحفاد ذى القرنين يدفعون الجزية لملك
Sosso! وبعد عدة أيام من السير وصلت القافلة أمام واجادو. وأشار
التجار لسوجولون وأطفالها إلى الغابة الكبيرة فى واجادو، التى كان
يسكنها الشعبان الكبير "بيدا" Bida وكانت المدينة محاطة بأسوار
ضخمة. ولاحظ المسافرون أن هناك العديد من التجار البيض فى
واجادو، كما رأوا حول المدينة العديد من المخيمات والجمال التى
كانت تتجول فى الأماكن المجاورة.

وكانت واجادو بلاد السراكوليه، فالناس هنا لا يتحدثون لغة
الماندينج، ومع ذلك هناك الكثير من الأشخاص يفهمونها لأن
السراكوليه يسافرون كثيرا، فهم كبار التجار، وقوافلهم من الحمير
المحملة بأوزان ثقيلة، وكانوا يأتون فى كل موسم جفاف حتى نياتى،
حيث كانوا يستقرون خلف المدينة ثم يخرج إليهم السكان للتبادل.

واتجه التجار تجاه الباب الأثرى للمدينة، وتحدث قائد القافلة
إلى الحراس، وأشار أحدهم إلى سونجاتا وأسرتة للحاق به، الذين
دخلوا مدينة السيسيه. كانت منازل المدينة ذات أسطح، ولم تكن من
القش، وهو ما يختلف تماما عن مدن الماندينج. وكان بالمدينة أيضا
العديد من المساجد، وهو ما لم يدهش سونجاتا؛ لأنه كان يعرف أن
السياسية هم أيضا من كبار "المارابو"، ففى نياتى لا يوجد سوى مسجد

واحد. ولاحظ المسافرون أن الأروقة (الأبهاء) كانت ملحقة بالمنازل، أما عند الماندينج فالبهو أو الرواق "البولون" يكون مستقلاً.

ولما كان المساء، توجه الجميع إلى المساجد، إلا أن المسافرين لم يفهموا شيئاً من الكلام، سوى أن المارة كانوا يتبادلون الأنظار وهم يرونهم يتجهون ناحية القصر. إن قصر ملك واجادو كان بناء مهيباً، فالجدران عالية، ويقال إنه كان سكناً للجن وليس للأشخاص. واستقبل شقيق الملك سوجولون وأطفالها، لأنه كان يفهم لغة المانينكا.

كان الملك يؤدي الصلاة، وأنزل أخوه المسافرين في حجرة فسيحة، وأتى إليهم بالماء ليرووا ظمأهم. وبعد الصلاة عاد الملك إلى قصره، واستقبل الأجانب وقام شقيقه بالترجمة.

– حيا الملك الغرباء.

– قالت سوجولون: نحن نحیی ملك واجادو!

– إن الغرباء دخلوا في سلام إلى واجادو، ونرجو أن يظلوا في سلام في مدينتنا.

– آمین!

– وأعطی الملك الكلام إلى الغرباء.

– بدأت سوجولون كلامها: إتنا من بلاد الماندينج، كان والد أطفالی هو الملك ناریه ماغان. الذى كان قد أرسل – منذ عدة

سنوات - وفدا للمحبة إلى واجادو. لقد توفي زوجي، لكن المجلس لم يحترم إرادته، إن ابني البكر (أشارت إلى سونجاتا) أقصى عن العرش. وفضلوا عليه ابن ضرتي. لقد عرفنا النفي. إن بغض ضرتي طردني من كل المدن. لقد طرقنا كل السبل أنا وأبنائي. واليوم أتيت طلبا للجوء لدى السيسيه في واجادو.

سادت بضع لحظات من الصمت، وأثناء خطاب سوجولون، لم يرفع كل من الملك وشقيقه ناظريهما عن سونجاتا للحظة، فأى طفل آخر فى الحادية عشرة من عمره لابد أن يحس بالاضطراب من نظرات الكبار، لكن سونجاتا، احتفظ بهدوئه وكان ينظر بهدوء إلى الزخارف الفخمة لحجرة استقبال الملك، والسجاجيد الوثيرة والسيوف الجميلة المعلقة على الحوائط، والملابس الفخمة لجلساء الأمراء.

وفى دهشة كبيرة من سوجولون وأطفالها تحدث الملك أيضا وبلغة الماندينج:

- لم يحدث قط أن خذل غريب فى ضيافتنا، فحرمانا هو حرمكم، وقصرنا هو قصركم، أنتم فى محفلكم، من نيانى إلى واجادو اعتبروا أنكم بدلتهم حجرتكم فقط!

فالمحبة التى تربط الماندينج بالواجادو ترجع إلى عصور بعيدة.

فالأجداد والرواة يعرفونها، فعمومة الماندينج هم عمومنا..

- وقال موجهها كلامه لسونجاتا وبلهجة حميمة.

- اقترَب ابن العم.. ما اسمك؟

- اسمي ماري جاتا كما ادعى أيضا ماغان، لكن الأكثر شيوعا يسمونني سوجولون جاتا.. وأخي، يدعى ماندينج بوكاري، وأختي الكبرى تسمى جامارو والأخري سوجولون كولونكان.
- وأن هذا الذي سيكون ملكا عظيما لا ينسى أحدا.

أما وقد رأى الملك أن سوجولون كانت في أشد التعب، فقال:

- إخوتي، اهتموا بضيقنا، وعاملوا سوجولون وأطفالها معاملة ملكية، ومنذ باكر سيتبوا أمراء الماندينج مكانهم بين أبنائنا!

سرعان ما تخفت سوجولون من متاعبها. وكانت تعامل كملكة في بلاط الملك سومابا سيسيه Soumaba Cissé. وألبسوا الأطفال على طراز أطفال واجادو. فقد ارتدى سونجاتا وماندينج بوري قمصانا طويلة بديعة مطرزة. وأحاطوهم بكثير من الرعاية لدرجة ضايقت ماندينج بوري، لكن سونجاتا رأى ذلك أمرا طبيعيا، أن يعامل على هذا النحو.

فالتواضع هو القاسم المشترك بين الرجال العاديين، أما الرجال ذوو المنزلة الرفيعة فلا يعرفون الخضوع. حتى سونجاتا

نفسه صار متشددًا، بل أكثر من ذلك كان مبالغًا، حتى إن الخدم يرتجفون أمامه. لقد قدره الملك كثيرًا، الذي قال مرة لأخيه:

- إذا حدث ذات يوم وكانت له مملكة، سيطيعه الجميع لأنه يعرف كيف يدير الأمور!

عندئذ وجدت سوجولون سلامها في واجادو، وهو الذي لم تجده لا في بلاط جيدبا ولا في طابون، غير أنها سقطت صريعة المرض خلال عام من إقامتها.

وقرر الملك سومابا سيسيه أن يرسل سوجولون وأبناءها إلى ميمبا في بلاط ابن عمه تونكارا. كانت ميمبا عاصمة مملكة كبيرة على نهر جوليبا، بعد بلاد دو. وطمان الملك سوجولون على الاستقبال الذي سيتم لها. وبلا شك فإن الهواء الذي يهب من النهر يمكن أن يعيد الصحة لسوجولون.

كان الأبناء في عناء لمغادرة واجادو، لقد عقدوا صداقات كثيرة فيها، لكن المصير كان في مكان آخر، لذا لزم الرحيل.

وعهد الملك سومابا سيسيه بالمسافرين إلى تجار كانوا متوجهين إلى ميمبا. كانت قافلة كبيرة، وتم السفر على ظهور الجمال. لقد اعتاد الأطفال منذ مدة طويلة على هذه الحيوانات غير المعروفة في الماندينج. لقد قدم الملك سوجولون وأبناءها كأعضاء في أسرته، وهكذا عوملوا بكثير من الاحترام من قبل التجار. أما سونجاتا المحب

دائماً للمعرفة فقد أثار الكثير من الأسئلة لأعضاء في القافلة كانوا على جانب كبير من العلم. لقد قصّوا أموراً كثيرة لسونجاتا. حكوأ له عن البلاد فيما وراء واجادو، بلاد العرب، الحجاز مهد الإسلام، ومهد أجداد جاتا. لأن بلال بوناما، الخادم الأمين للنبي، قدم من الحجاز. لقد تعلم الكثير من الأمور عن ذى القرنين. لكن التجار كانوا يتحدثون برعب عن سوماؤرو الملك العراف، النهاب الذى يسرق كل شيء من التجار حينما يكون فى مزاج عكر.

وكان رسول قد سافر مبكراً من واجادو ليخبر عن وصول سوجولون إلى ميمما. فتم إرسال موكب كبير لاستقبال المسافرين. وأمام ميمما كان قد أعد استقبال حقيقى؛ وكان رماة السهام والرماح، قد شكلوا صفاً مزدوجاً. أما التجار فلم يكن أمامهم سوى بذل المزيد من الاهتمام لرفاق الرحلة. كان هناك ما يثير الدهشة، وهو غياب الملك: كانت شقيقته هى التى نظمت هذا الاستقبال العظيم: حيث كان كل أبناء ميمما على باب المدينة، ذلك أنه كان يُقال إنه ترحيب بعودة الملك. وفى ميمما كان كثير من الناس يتحدثون المالىنكيه. وسوجولون وأبناؤها استطاعوا فهم دهشة الناس الذين كانوا يتساءلون:

– من أين جاءوا؟ ومن هم؟

استقبلت شقيقة الملك سوجولون وأبناؤها فى القصر. كانت تتحدث المانىنكا بإجادة كبيرة. كانت تتحدث إلى سوجولون كما لو

كانت تعرفها منذ مدة طويلة. أنزلت سوجولون فى جناح بالقصر. وكعادته فرض سونجاتا نفسه بسرعة شديدة على الأمراء الشباب فى ميماء. وفى عدة أيام عرف أركان وخبايا الحرم الملكى.

إن هواء ميماء وهواء النهر قد أفادا كثيرا صحة سوجولون. كما تأثرت كثيرا من محبة شقيقة الملك، والتى كانت تدعى ماسيران Massiran. وأسرت ماسيران، شقيقة الملك، إلى سوجولون أن الملك ليس له أبناء. أما الرفاق الجدد لسونجاتا فقد كانوا أبناء من أقطعهم الملك أرضا فى ميماء، كان الملك قد ذهب فى غزوة ضد سكان الأراضى الجبلية التى توجد على الجانب الآخر من النهر. وكان يقوم بذلك كل عام حيث إنه عندما يترك هذه القبائل وشأنها فى سلام، فإنها كانت تنزل من الجبال لتقوم بنهب البلاد.

لقد وجد سونجاتا وماندينج بورى متعتهم المفضلة، ألا وهى الصيد، كانوا يذهبون إليه مع شباب أبناء النبلاء فى ميماء.

ومع اقتراب أشهر الشتاء تم الإعلان عن عودة الملك، حيث كانت تنظم مدينة ميماء استقبالا حافلا لملكها: حيث يلبس موسى تونكارا ملابس فخيمة ويمتطى جوادا جميلا، وخيالته الأشداء يشكلون موكبا مهيبا، أما جنود المشاة فيسيرون فى صفوف يضعون على رؤوسهم الغنائم التى فازوا بها من العدو، وطبول الحرب تدق. بينما يسير الأسرى مطأطئى الرؤوس. والأيدى مشدودة إلى الظهر، كانوا يتقدمون والحزن بادٍ عليهم تحت صيحات استهزاء الجمهور.

وحيثما استقر الملك في قصره، قنمت له شقيقته ماسيران
سوجولون وأبناءها وسلمته خطاب ملك واجادو. وكان موسى تونكارا
بشوشا إلى أقصى درجة وقال لسوجولون:

- سومالا Soumala ابن عمي أوصانا بكم، وهذا يكفي، أنتم
في دياركم. ستبقون هنا لأطول وقت تريدون.

وفي بلاط ميمما قام سونجاتا وماندينج بوري بأول تدريب على
السلاح. كان موسى تونكارا محاربا عظيما كما كان يعجب بالقوة.
وحيثما بلغ سونجاتا الخامسة عشرة كان الملك يصحبه معه في
غزواته. لقد أدهش سونجاتا الجيش لقوته وحميته في الهجوم خلال
مناوشة ضد ساكني الجبال. انقض على العدو بعنف، حتى خشي
عليه الملك. ذلك أن مانسا تونكارا، كان يعجب كثيرا لبراعة ابن
سوجولون وشجاعته، حتى إنه لم يستطع أن يوقف من اندفاعه، وكان
يتبعه عن قرب ليحميه، وكان ينظر بسرور لهذا الياق وهو ينشر
الهلع بين صفوف العدو، إذ كان له حضور ذهني مشهود: كان
يضرب يمنة ويسره ويفتح لنفسه طريقا منتصرا. وحيثما يهرب
العدو، يقول المحاربون^(٤) القدماء: "إنه سيكون ملكا عظيما. وأخذ
الملك موسى تونكارا ابن سوجولون بين ذراعيه قائلا: إنه القدر الذي
أتى بك إلى ميمما، سأجعل منك محاربا عظيما".

منذ ذلك اليوم لم يترك سونجاتا الملك قط. لقد بز كل الأمراء الشبان، وكان محبوبا من كل الجيش. الكل فى المعسكر لا يتحدث إلا عنه. كانوا أكثر اندهاشا لصفاء ذهنه. وفى المعسكر، كان جاهزا للرد على الجميع، وكانت المواقف الأكثر إثارة للحيرة تجد لدى هذا اليافع الحل.

وسرعان ما بدأ الناس فى ميمة الحديث عن ابن سوجولون: أليست هى العناية الإلهية التى أرسلت بهذا الطفل فى هذه اللحظة حيث ميمة لا وريث لها؟ الجميع يؤكد أن سونجاتا سيمد إمبراطوريته من ميمة حتى الماندينج. وكان يشارك فى كل الغزوات، وأصبحت غارات العدو نادرة أكثر فأكثر، وذاعت شهرة ابن سوجولون وامتدت من هناك إلى ما بعد النهر.

وفى خلال ثلاث سنوات، عين الملك سونجاتا نائبا له. كان هو الذى يحكم فى غياب الملك. وكان سونجاتا قد بلغ ثمانية عشر عاما، وصار شابا عظيما ذا رقبة غليظة، لا يستطيع أحد أن يصوب بسهمه لهذا الصدر القوى، وكل العالم ينحنى أمامه، الكل يحبه، وأولئك الذين لا يحبونه يخشونه، أصبح صوته أمرا.

وافق الجيش والشعب على اختيار الملك، لقد أحب الشعب كل ما يفرضه عليه. أما أرباب ميمة فقد كشفوا عن المصير الخارق للعادة لجاتا. وقيل إنه كان خليفة "ذى القرنين"، بل إنه سيكون أعظم. كذلك حلم الجند بآلاف الأحلام بالنصر فكم من الأمور التى يمكن

القيام بها مع مثل هذا القائد الشجاع! لقد ألهم سونجاتا الجنود الثقة بأن قدم إليهم المثال، لأن الجند يحبون أن يروا القائد وهو يتعرض للخطر. لقد صار جاتا الآن رجلاً: لقد مضى الوقت منذ مغادرة نياني، والمصير يجب أن يكتمل الآن. كانت سوجولون تعرف أن الساعة قادمة، لقد أدت مهمتها، لقد غنت الابن الذي كان العالم ينتظره، كانت تعرف أن مهمتها قد اكتملت الآن وأن مهمة سونجاتا قد بدأت. وقالت لابنها ذات يوم: لا تتخذه، إن مصيرك ليس هنا، إن مصيرك في بلاد الماندينج، لقد جاءت اللحظة، لقد أنهيت مهمتي، إن مهمتك ستبدأ، يا بني، لكن يجب أن تتأمل فكل شيء في وقته.

الهوامش:

- (١) "الورى" هى لعبة رائجة فى غينيا العليا، والسودان الغربى، وهى نوع من لعبة الضامة؛ حيث البيادق عبارة عن زلط صغير موضوع فى حفر حفرت فى جذع شجرة.
- (٢) "واجادو" هو اسم بلاد غانا القديمة بلغة المالىنكيه، حيث كان يحكمها الأمراء سيسيه - تونكارا Cissé- Tounkara .
- (٣) "ديو" Dio أى المحظور الذى قرره أحد الأسلاف والذى يتوجب على الأخلاف احترامه، والمقصود هنا هى الأسطورة المعروفة لثعبان غانا، فهذه المدينة كان لها جنى يحميها، ثعبان عملاق، تقدم له كل عام فتاة كأضحية. وحدث أن وقع الاختيار على الجميلة "سيا" Sia؛ إلا أن خطيبها "محمد الأمين" Mamadou Lamine (بعض الروايات تطلق عليه أحمدو لوتاسيترن أى الصامت الذى قطع رأس الأفعى وأنقذ حبيبته)، ومنذ ذلك ابتليت المدينة بالكوارث حيث فر السكان من الجفاف الذى ضرب كل البلاد، ومع ذلك من الصعب تحديد تاريخ اختفاء مدينة غانا (واجادو) وبحسب "تولاقوس" Delafosse، فقد دمرت المدينة من قبل سونجاتا نفسه عام ١٢٤٠، إلا أن "ابن خلدون" أتى بذكر غانا فى نهاية القرن الرابع عشر.
- (٤) صوفا Sofa هم المحاربون - أى الجنود.

سوماؤرو كانتيه Soumaoro Kanté

الملك العراف

كان ابن سوجولون قد بدأ بطولاته، حين كان بعيدا عن مسقط رأسه. وكانت بلاد الماندينج Manding قد سقطت تحت هيمنة ملك جديد: سوماؤرو كانتيه، ملك سوسو Sosso.

ولما وصل الوفد الذى كان قد أرسله دانكاران تومان إلى سوسو، طالب سوماؤرو أن تعترف الماندينج بخضوعها للسوسو وأدائها الجزية لها. ووجد بلا فاسيكيه، وفود عدة ممالك أخرى فى بلاط الملك سوماؤرو، إذ سرعان ما فرض ملك سوسو نفوذه على الجميع بقوة جيشه من الحدادين، فبعد هزيمة واجادو ودياغان diaghan لم يجرؤ أحد على الوقوف فى وجهه. وينحدر سوماؤرو من سلالة دياريسو Diarisso الحدادين، الذين طوعوا النار وعلموا الناس شغل الحديد، إلا أن سوسو ظلت قرية صغيرة لا شأن لها لمدة طويلة، وكان ملك واجادو هو المسيطر على البلاد. لكن شيئا فشيئا كبرت مملكة سوسو على حساب واجادو، وهام آل الكانتيه يحكمون سيدهم القديم. ومثل كل أمراء الحرب، كان سوماؤرو كانتيه عرافا كبيرا، كانت قوة تعاويذه مرعبة. لذا كان كل الملوك يرتعدون أمامه، بسبب تعاويذه هذه، إذ كان يقدر على إنزال الموت بمن يشاء. وكان قد حصّن بلاد سوسو بسور ثلاثى، حيث ينتصب قصره وسط المدينة

ويشرف على أكواخ القرى. وكان قد أمر ببناء برج فسيح ذي سبعة طوابق، وسكن هو في الطابق السابع وسط تعاويذه. ولذا كان يسمى "الملك الذي لا يُمس".

كان سوماؤرو قد سمح بعودة بقية الوفد بعد أن احتجز بلأ فاسيكيه، وهدد بتدمير نياني إذا لم يذعن دانكاران تومان. وسرعان ما أعلن ابن ساسوما المذعور إذعاته، بل أرسل شقيقته نانا تريبان إلى ملك سوسو.

وذاث يوم وكان الملك غائبا، تسال بلأ فاسيكيه خلال القصر إلى أن بلغ الغرفة الأكثر سرية فيه، حيث يحتفظ الملك سوماؤرو بتعاويذه، فلما دفع الباب تسمرت قدامه من هول ما رأى: الحوائط مغطاه بجلود آدمية، وكان هناك جلد آخر وسط البهو، كان يجلس عليه الملك، وكان هناك تسعة رؤوس لموتى تشكل دائرة حول جرة. وحينما فتح بلأ فاسيكيه الباب، تحركت المياه بشدة داخل الجرة، وأطل ثعبان ضخم برأسه، وتلا بلأ فاسيكيه الذي كان طويل الباع في السحر، بعض التمانم، بعدها خلد كل ما في الغرفة إلى الهدوء، وواصل ابن دوا بحثه.

رأى فوق السرير ثلاث بومات بتون نائمات على مجش الطيور، وعلى الحائط في الداخل كانت قد علقت أسلحة ذات أشكال غريبة: سيوف معقوفة، وسكاكين ثلاثية النصل. نظر "بلأ" بانتباه لرعوس الموتى، وتعرف على الملوك التسعة الذين قتلهم سوماؤرو.

وعلى يمين الباب اكتشف آلة موسيقية ضخمة لم ير ضخامتها من قبل فى الماندينج، وبطريقة عفوية قفز، وذهب للجلوس ليلعب بالإكسليفون: فالراوى يضعف دائما أمام الموسيقى، لأن الموسيقى هى روح الراوى.

أخذ يلعب على الآلة، فلم يكن قد سمع قط من قبل أنغاما بمثل هذا الانسجام. وما كاد يلمسها مسا خفيفا بالعصا، حتى سربت الآلة النافخة الخشبية دفقة من الأنغام ذات عذوبة لا حد لها. وكانت العلامات الموسيقية واضحة، نقية مثل بودة الذهب. وبين يدي بلا فاسيكيه الماهرة، وجدت الآلة أستاذًا، فقد لعب بكل جوارحه، وانبهر كل ما فى الغرفة. ومن الانبساط، بدأت البومات الثلاث الناعسة بأعينهن شبه المغلقة فى تحريك رعوسهن بهدوء. وبدا أن الحياة دبّت فى كل شيء مع نغمات هذه الموسيقى الساحرة: إذ استعادت رعوس الموتى التسعة شكلها الدنيوى، وخفقت جفونهم وهم ينصتون إلى هذه الموسيقى الرصينة إلى لحن "النسور". ومن الجرة ظهر الثعبان وهو يستمع للموسيقى وقد وضع رأسه على حافتها. وكان بلا فاسيكيه يشعر بسعادة بالغة لتأثير موسيقاه على السكان الشواذ لهذه الحجرة المربعة. لقد عرف أن الآلة ليست كغيرها من الآلات، فهى آلة ملك ساحر، وكان الملك سوماؤرو هو الوحيد الذى يلعب على هذه الآلة. فبعد كل نصر، يأتى بها ليتغنى بمآثره، ولم يمسها راو قط، فلم يكن أحد يملك آذنا لسماع الموسيقى. كان سوماؤرو على ألفة كبيرة بهذه

الآلة، وفي غيابه أو حضوره، يكفي أن يلمسها ليعرف أن شخصا قد
دلف إلى غرفته السرية.

لم يكن الملك ببعيد عن المدينة، فهرع إلى قصره، وصعد إلى
الدور السابع. سمع بلاً فاسيكيه صوت أقدام متعجلة في البهو، وإذا
بسوماؤرو وقد هجم على الغرفة شاهرا سيفه، وهو يزد: من
هناك....؟ أنت، يا بلاً فاسيكيه!!

استشاط الملك غضبا، فجحظت عيناه الحمراتان كالجمر
المشتعل بقوة، إلا أن ابن دووا، الذي لم يفقد رباطة جأشه، ارتجل
أغنية للملك بعد تغيير اللحن حيث قال:

هذا هو سوماؤرو كاتتيه

أحييك.. أنت يا من تجلس على جلد الملوك.

أحييك.. يا سيمبون.. يا بطلاً في رمى السهم القاتل

أحييك.. يا من ترتدى ملابس من جلد آدمى.

أعجب سوماؤرو للغاية بهذا اللحن الذي أنشده بلاً فاسيكيه.

فلم يسبق له أن سمع مثل هذا الكلام الجميل، والملوك بشر:
الكلام يفعل بهم ما لم يقدر على فعله الحديد. وهم أيضا حساسون
للتملق: فذهب الغضب عن سوماؤرو، وملا الفرح قلبه، وكان يستمع
بانتهاء لهذه الموسيقى العذبة:

أحييك، أنت يا من يرتدى ثيابا من جلود آدمية

أحييك، يا من تجلس على جلد الملوك

كان بلأ فاسيكيه يغنى، وأدخل صوته العذب الفرع إلى ملك

سوسو.

- وقال الملك: إنه لشيء رائع أن يسمع المرء شخصا آخر يغنى له، يا بلأ فاسيكيه لن تعود أبداً لبلاد الماندينج، فمن الآن أنت الراوى الخاص لى.

إن بلأ فاسيكيه، الذى منحه الملك ناريه ماغان إلى ابنه سونجاتا، كان قد اختطف من قبل داتكاران تومان، والآن فسوماؤرو كانتيه، ملك سوسو اختطف بدوره هذا الراوى الثمين والأمين، من ابن ساسوما بيريتيه.. ولذا أصبحت الحرب حتمية لا يمكن تجنبها بين سونجاتا و سوماؤرو.

تاريخ

بلغنا الآن اللحظات العظيمة في حياة سونجاتا. سينتهى النفى. ستشرق شمس أخرى، إنها شمس سونجاتا. قالرواة يعرفون تاريخ الملوك والممالك؛ لهذا فهم خير من يقدمون النصيحة للملوك، ويجتهد كل ملك عظيم إلى أن يكون لديه راو ليخلد ذكراه. الراوى هو الذى يحافظ على ذكرى الملوك، إن البشر ذوو ذاكرة ضعيفة.

فللممالك مصيرها الذى رُسم لها مثل مصير البشر، والأرباب هى التى تعرفه، لأنهم يتقنون فى المستقبل، فهم من يملكون علم المستقبل، أما نحن الرواة الآخرون فنحن المؤتمنون على علم الماضى. ومن يعرف تاريخ دولة، يمكنه قراءة مستقبلها.

إن شعوبا أخرى تستعمل الكتابة لتثبيت الماضى، لكن هذا الاختراع قتل الذاكرة لديهم، فلم يعودوا يدركون الماضى، لأن الكتابة ليست لها حرارة الصوت الإنسانى. وعندهم يدعى الجميع المعرفة، من هنا فالمعرفة يجب أن تكون سرا^(١). فالأنبياء لم يكتبوا، وأقوالهم نابضة بالحياة، وبإلها من معرفة نافذة، أى تلك المعرفة الجامدة فى كتب صماء.

أنا جيلى مامادو كوياتيه، أنا نهاية إرث طويل. فمنذ أجيال ننقل تاريخ الملوك من الأب للابن. فالكلام نقل لى بلا تحريف وأنا أردده دون أن أحرفه، لأننى تلقيتَه صافيا وخالصا من كل كذب.

أنصتوا الآن لتاريخ سونجاتا، أى النا كَامَا (*) Na, Kamma،
ذلك الرجل الذى كان عليه إنجاز مهمة.

فى اللحظة التى تأهب فيها لاسترداد مملكة آبائه، كان
سوماؤرو هو ملك الملوك، كان الملك الأشد بأسا لبلاد الشمس
الغاربة. وكانت سوسو Sosso، تلك المدينة الحصينة، هى معقل
التمائم المناهضة لكلمة الله. فمنذ زمن طويل تحدى سوماؤرو العالم
بأسره. ومنذ اعتلائه عرش سوسو، هزم تسعة ملوك، استخدم
رعوسهم تمائم فى غرفته المرعبة، واستخدم جلودهم كمقاعد يجلس
عليها وانتعل حذاء من جلد إنسانى. فلم يكن سوماؤرو رجلا مثل بقية
الرجال، فقد تكشفت له الجن، وبأسه لا يخضع للقياس لأنه ذو بأس
عظيم. ومحاربوه بأعدادهم الكبيرة التى لا تحصى ولا تعد، كانوا
على جانب كبير من الشجاعة لأنهم كانوا يؤمنون أن ملكهم لا يقهر.

كان سوماؤرو عبقرىا فى الشر، ولم يكن يستخدم قوته سوى
فى سفك الدماء، ولم يكن لديه محرمات: كان مبلغ سروره عندما
يجلد بالسوط وعلى الملأ الشيوخ المسنين المحترمين. كان قد دنس
كل الأسر، وفى إمبراطوريته المترامية الأطراف، كانت هناك قرى
ملينة بالشابات اللاتى اختطفهن قهرا من أسرهن دون الزواج بهن.

(*) الناكاما Na, Kamma = المبعوث للخلاص (المترجمة).

إن الشجرة التى توشك العاصفة على اقتلاعها، لا ترى الإعصار الذى تهباً فى الأفق، فرأسها الشامخة تتصدى للرياح، حينئذ تقترب من نهايتها. من هنا كان سوماؤرو قد وصل إلى احتقار العالم قاطبة. آه! كم تعرف السلطة كيف تفسد الإنسان، ولو كان الإنسان قد ملك مثقالا Mitcal^(١) واحدا من القوة الإلهية، لكان العالم قد فنى منذ مدة طويلة. كان سوماؤرو على قناعة بالأمر يتراجع أمام أحد. وكان ابن أخته "كاسيا" Kassia، للمحارب "فاكولى كوروما" Koroma Fakoli هو القائد العام لجيشه، وكان لفاكولى زوجة فذة خارقة تدعى "كليا" Keleya، كانت عرافة عظيمة، كزوجها تماما، وكانت تجيد الطهى أفضل من نساء سوماؤرو الثلاثمائة مجتمعات^(٢). فاخطف سوماؤرو، كليا وحبسها لديه، وغضب فاكولى غضبا شديدا وذهب لملاقاة خاله.

قائلا له: إنك لم تستح من ارتكاب المحارم بخطط زوجتى، فمن الآن أنا فى حل من أية ارتباطات تجاهك، بل ساكون إلى جانب أعدائك سألحق بجيش المالينكيه الثائرين، وسأشن عليك الحرب. وغادر سوسو مع محاربى قبيلة كوروما.

كان ذلك بمثابة إشارة: فقد انفجرت كل الضغائن والأحقاد المكظومة منذ فترة طويلة. لقد لبي الجميع فى كل مكان نداء فاكولى: وسرعان ما جيش دانكاران تومان ملك الماندينج ومضى للحاق بفاكولى: إلا أن سوماؤرو نحى جانبا ابن أخته وانقض على دانكاران

تومان الذى كف عن النضال وأدير هاربا نحو بلاد الكولا Kola وأسس مدينة "كيسيدوجو"^(٤) Kissidougou فى المناطق الحرجية. وفى أثناء ذلك قام سوماؤرو وهو فى غضبه بعقاب كل المدن الثائرة من الماندينج. فهدم مدينة نيانى، وحولها إلى رماد. وصب السكان اللعنة على الملك الذى أدير الفرار.

يتساءل البشر عن مصائرهم وسط المصائب! فبعد فرار دانكاران تومان، أعلن سوماؤرو ملكا على الماندينج انطلاقا من حقه كمنتصر. لكن أهل البلاد لم يعترفوا به، ونظمت المقاومة فى الأدغال. واستشير الأرباب حول مصير البلاد، أجمعوا على القول بأن الوريث الشرعى للعرش، والذى سينقذ الماندينج كان "الرجل ذو الاسمين"، لقد تذكر القدامى فى بلاط نيانى ابن سوجولون الرجل ذا الاسمين وليس غيره، إنه ماغان سونجاتا.

فأين يجدونه؟ لم يكن أحد يعرف أين كانت تعيش سوجولون وأبناؤها، فمنذ سبع سنوات، انقطعت أخبارهم. والمطلوب الآن، العثور عليهم. وتم تشكيل فريق وعهد إليه البحث عنهم، ومن بينهم يجب أن نذكر "كونتون مانيان" Kountoun Manian، وهو راو طاعن فى السن من بلاط ناريه ماغان، و"مانجان بيريتيه" Mandjan Béréte، شقيق ساسوما الذى لم يكن يريد اللحاق بدانكاران تومان فى فراره، و"سينبان ماراسيسيه" وهو مارابو فى البلاط، وسيرمان توريه Siriman Touré وهو مارابو آخر، وأخيرا امرأة هى "مانيوما".

وحسب ما أشارت به الأرباب، كان يتعين البحث باتجاه بلاد النهر،
أى باتجاه الشرق. وغادر الباحثون عن سونچاتا الماندينج، بينما
كانت الحرب تضيع أوزارها بين سوسو سوماؤرو وابن أخته فاكولى
كوروما.

الهوامش:

(١) هذه إحدى الصيغ التي تتردد دائما في أفواه الرواة التقليديين. وهو ما يفسر الشح الذي ينشر به حفظة التراث التاريخي هؤلاء معارفهم. وهم يرون أن البيض جعلوا العلم مشاعا. فإذا ما عرف الأبيض شيئا ما، تعرفه كل الناس. ويتعين تغيير هذه الحالة العقلية، إذا ما أردنا يوما ما معرفة كل ما لا يريد الرواة الإفصاح عنه.

(٢) Mitcal - وحدة وزن عربية، تساوي ٤,٢٥ جرام. وفي لغة مالينكية يستعمل هذا اللفظ لتمييز أصغر كسر من أي شيء.

(٣) هناك روايات ثابتة تقول إن كليتا امرأة فاكولي، وصلت مهارتها إلى حد أنها كانت تؤلم كل أفراد الجيش من طحينها، علما بأن نساء سوماؤرو الثلاثمائة لم يصلن قط إلى إطعام الفرق وسد رمقها. وقد اختطف الحسود سوماؤرو- كليتا. وهذا أصل ردة فاكولي الذي انضم إلى سونجاتا.

(٤) من المعروف أنه في منطقة الأحراش في غينيا (جنوب كانكان Kankan) يوجد العديد من المانساريه- كييتا Mansaré- Kéita. ويقال إنهم ذرية دانكاران تومان الذين استوطنوا (أي أتبعوا للماندينج) كل منطقة كيسيدوجو، هؤلاء الكييتا يسمون Farmaya-

Kéita. ويقال إنه عندما وصل دنكاران تومان إلى موقع
كيسيدوجو، صاح قائلاً، "لقد نجونا" (An bara Kissi) ومنها نسب
الاسم للمدينة، ولفظ كيسى - دوجو kissi - dougou هو اشتقاق
يعنى "مدينة الخلاص".

أوراق البابواب(*)

وفى ميماء، علم سونجاتا أن سوماؤرو كان قد غزا الماندينج، وأخاه دانكاران تومان كان فى حالة فرار: وعلم أيضا أن فاكولى وقف فى وجه ملك سوسو وقاومه. فى ذلك العام كانت مملكة ميماء يسودها السلام. وكان نائب الملك؛ Kan- koro- sigui يعيش أوقات فراغ كبيرة، يذهب كالعادة للصيد. ومنذ وصلت أنباء الماندينج، صار سونجاتا مختما، ومرضت سوجولون وداومتها الشيخوخة، أما ماندينج بورى الذى بلغ الخامسة عشرة، فقد صار الآن شابا يافعا مليئا بالحيوية مثل أخيه وصديقه سونجاتا. وكبرت شقيقات جاتا، وأصبحت كولونكان الآن شابة ناضجة فى سن الزواج، وقد صارت سوجولون مسنة، فها هى كولونكان تقوم بأمور الطبخ وكثيرا ما تذهب إلى سوق المدينة بصحبة خادوماتها.

وذات يوم، وحيث كانت فى السوق، لاحظت امرأة كانت تعرض أعشاب النافيوولا والنيوغو، وهى توابل يجهلها أبناء ميماء، الذين كانوا ينظرون للمرأة باندماش. فاقتربت كولونكان من تلك

(*) Le Baobab البابواب = هو شجر عريض الجذع استوائى - فى ثمره لب يؤكل.

المرأة وتعرفت على أوراق البواباب، وغيرها من الخضروات الكثيرة التي كانت تزرعها أمها في بستانها بنياني.

- همهمت كولونكان: إنها أوراق باباب والنيوغو، وقالت وهي تأخذ منها: إتنى أعرفها!

- ردت المرأة: كيف تعرفينها يا أميرة؟ فأنا أعرضها من مدة في السوق، سوق ميمو ولم يرغب فيها أحد هنا.

- قالت كولونكان: أنا من الماندينج، وهناك كانت أمي تملك مزرعة، وكان أخي يذهب لإحضار أوراق البواباب.

- قالت المرأة: ما اسم أخيك يا أميرة؟

- ردت كولونكان: سوجولون جاتا، وأخي الثاني يدعى ماندينج بوري، ولي شقيقة أيضا تسمى سوجولون جامارو. اقترب شخص منها، ومن ثم تحدث إلى سوجولون كولونكان قائلا:

- أميرتي نحن أيضا من الماندينج، نحن تجار، نذهب من مدينة إلى أخرى، أنا أعرض الكولا خذي! إتنى أعطيك منها... أيتها الأميرة: هل يمكن لنا أن نقابل والدتك اليوم؟

- ردت، بالتأكيد. ستسر والدتي بالتحدث مع أناس قادمين من الماندينج. ابقوا هنا ولا تتحركوا سأحدثها في هذا الأمر.

وعقدت كولونكان ثوبها الطويل حول خصرها، وأطلقت لساقها العنان وأخذت تجري نحو الجناح الملكي، دون أن تعير أدنى

اهتمام للفضيحة التي ستحدث عند رؤية شقيقة نائب الملك وهي تسرع في العدو عبر السوق نحو الدار الملكية.

- نانا؛ قالتها كولونكان وهي تلهث موجهة حديثها إلى والدتها: لقد وجدت في السوق أوراق البواباب والنيوغو وأشياء أخرى عديدة. انظري! إنهم تجار من الماندينج الذين يعرضونها. إنهم يرغبون في رؤيتك.

- تناولت سوجولون بيدها أوراق البواباب والنيوغو، وقربتها من أنفها كمن تريد أن تمتص منها كل رائحتها، وفتحت عينيها مندهشة ونظرت إلى ابنتها قائلة:

- أتقولين إنهم أتوا من الماندينج؟ أسرعى إلى السوق وأخبريهم أنني أنتظرهم. أسرعى يا ابنتى!

وبقيت سوجولون بمفردها، وظلت تقلب التوابل الثمينة بيدها، عندها سمعت سونجاتا وماندينج بوري عائدين من القنص.

- قال ماندينج بوري: سلاما يا أمى... لقد عدنا!

- وقال سونجاتا: سلاما يا أمى.. لقد أحضرت لك صيدا!

- ردت سوجولون: ادخلا، واجلسا! وأشارت إلى ما تمسكه بيدها.

- قال سونجاتا: إنه النيوغو.. أين وجبته؟ فالناس هنا لا تزرعه أبدا.

- قالت: نعم، صحيح، إنهم تجار من الماندينج، يعرضونه في السوق، وقد ذهبت كولونكان في البحث عنهم، لأنهم يرغبون في رؤيتي، سنحظى بأخبار الماندينج.

وسرعان ما ظهرت كولونكان، يتبعها أربعة رجال وامرأة. وفي الحال تعرفت سوجولون على أعيان بلاط زوجها. بدأت السلّامات والتّحيات، كانوا يحيون بعضهم بعضا بكل الألب والتّلف الذي يعرفه ويتطلبه ود أبناء الماندينج. وقالت سوجولون:

- إليكم أبنائي، لقد كبروا بعيدا عن مسقط رأسهم. والآن حدثونا عن الماندينج. تبادل المسافرون النظرات سريعا، ثم بدأ مانجان بيريتيه شقيق ساسوما الحديث قائلا: "أشكر الله العلى القدير لأننا هنا أمام سوجولون وأبنائها، أشكر الله لأن سفرنا لم يكن بلا فائدة. لقد غادرنا بلاد الماندينج منذ شهرين، ذهبنا من مدينة ملكية إلى الأخرى، نقدم أنفسنا كتجار. كانت مانيوما تعرض خضروات الماندينج في الأسواق: ففي بلاد الشرق هذه لا يعرف الناس هذه الخضروات، أما في ميماء، فقد كشفت خطتنا عن صوابها: فالشخص الذي اشترى النيوغو أمكنه إعلامنا عن مصيرك، كما أن هذا الشخص وحتى تكتمل السعادة، اتفق أن يكون كولونكان.

"للأسف! أحمل إليكم أخبارا تعيسة! إنها مهمتى: لقد قام سوماؤرو كانتيه ملك سوسو ذو البأس الشديد، ينشر الموت والخراب في الماندينج، وهرب الملك دانكاران تومان. والماندينج بلا رئيس،

لكن الحرب لم تنته، فالرجال الشجعان فى الأدغال، يخوضون حربا على العدو لا تعرف الكلل. كما يقود فاكولى كوروما، وهو ابن أخت ملك سوسو معركة ضارية بلا هوادة، ضد خاله الذى يرتكب المحرمات والذى اختطف منه زوجته. لقد سألنا الجان، وأجابونا أن ابن سوجولون هو الوحيد الذى يمكنه أن يخلص الماندينج. لقد أنقذت الماندينج لأننا وجدناك يا سونجاتا.

"ياماغان سونجاتا. أحبيك يا ملك الماندينج! إن عرش آبائك ينتظرك، وأيا كانت المنزلة التى تشغلها هنا، دع كل هذا المجد، واذهب لاسترداد وطنك! إن الشجعان ينتظرونك! اذهب لإقامة السلطة الشرعية فى الماندينج؛ فالأمهات للباقيات لا يتضرعن إلا باسمك، وينتظرك الملوك الذين تألبوا عليه، فاسمك وحده يلهمهم الثقة، يا ابن سوجولون لقد أزفت ساعتك، سيتحقق كلام العجوز نيانكومان دوا، لأنك العملاق الذى سيصرع سوماورو.

خيم سكون عميق على غرفة سوجولون، بعد هذا الكلام، وظلت صامئة تغض الطرف، أما كولونكان وماندينج بورى فقد كانت عيناهاما تحدقان فى سونجاتا.

- قال سونجاتا: حسنا! لم يعد وقت للكلام. سأذهب فى طلب إجازتى من الملك وسنعود فى التو، يا ماندينج بورى، كرس اهتمامك بمبعوثى الماندينج، سيعود الملك هذا المساء، وسنأخذ طريقنا للعودة فى الصباح.

- وقف سونجاتا، ووقف كل المبعوثين، وخرج جاتا. كان ملكا بالفعل.

- عاد الملك إلى ميما عند الغسق، كان قد ذهب لقضاء النهار في أحد مقار إقامته في الضواحي. لم يكن نائب الملك في استقبال الملك، لم يكن أحد يعرف أين كان يوجد، فقد عاد في المساء وقبل أن يخلد للنوم ذهب لرؤية سوجولون. كانت تعاني من حمى، وترتجش تحت الأغشية، وبصوت ضعيف تمنّت لابنها ليلة سعيدة. ولما انفرد سونجاتا في غرفته اتجه نحو الشرق قائلا هذه الكلمات:

- اللهم يا قادر على كل شيء! لقد حان وقت العمل، فإذا كان يتعين عليّ أن أنجح في استعادة الماندينج، اللهم هيئ لي أن أوارى أمي التراب هنا في سلام، ثم أخذه النعاس.

وفي الصباح، أسلمت سوجولون كيجو الروح، تلك المرأة العجل. وكان كل بلاط ميما في حالة من الحزن والحداد، لأن أم نائب الملك ماتت. وذهب سونجاتا للقاء الملك الذي قدم له تعازيه، وقال للملك:

- أيها الملك! لقد أحطتني بكريم الضيافة في بلاطك حيث كنتُ بلا مأوى، وتحت أوامرك بدأت أولى خطواتي، إنني أشكر بكرمك. لقد ماتت أمي، وأنا الآن رجل ويتوجب عليّ أن أعود إلى الماندينج، لأطالب بمملكة آبائي. أيها الملك، أعيد إليك المهام

أنتى كنت اضطلع بها، وألتمس إجازتى، وقبل أن أغادر، اسمح لى
أن أدفن والدتى المسكينة هنا.

أزعج هذا الكلام للملك، فلم يكن يخطر على باله يوما أن ابن
سوجولون يقدر على التخلّى عنه.

وقال متسائلا: عمّ يبحث عند الماندينج؟ ألم يكن يعيش سعيدا
فى ميمما ومحترما من الجميع؟ أليس هو بالفعل وريث عرش ميمما؟ يا
له من جاحدا! كان الملك يظن ذلك، فابن الغير دائما أبدا ابن الغير.

- كافر بالنعمة؛ قالها الملك! ولأن الأمر كذلك، اذهب، اخرج
من مملكتى، وستحمل رفات والدتك، وإن تدفنها فى ميمما!

وبعد برهة، استكمل حديثه:

- إذن، فإذا أردت أن تدفن والدتك، عليك أن تدفع لى ثمن
الأرض التى سترقد عليها.

- أجاب سونجائنا: سأدفع لاحقا، سأدفع بعدما أصل الماندينج.

- قال الملك: لا. ادفع الآن، وإلا ستأخذ معك رفات والدتك.

عند ذلك وقف ابن سوجولون وخرج، ورجع فى غضون
بضع دقائق، وقد أحضر للملك سلة مليئة ببقايا أواني خزفية، وريش
طيور، وقطع من القش وريش الحجل وقال:

- أيها الملك: هذا ثمن الأرض.

- قال الملك: أتَهْزَأُ يا سونچاتا، خذ سلّتك وما بها من قمّامة،
فليس هذا ثمن الأرض، ماذا تعنى؟

عندئذ قال شيخ عربى كان مستشاراً للملك:

أيها الملك أعط لهذا الشاب الأرض التى يجب أن تمتد أمه
عليها إن ما يجمّله له دلّالته: إذا رفضت الأرض، سيشن عليك
الحرب. وهذه الأواني المهشمة وهذا الريش يعنىان أنه سيدمر
مدينتك، ولن تتعرف منها إلا على هذه الأواني المهشمة وسيجعلها
خراباً حيث ستجئ الغربان والطيور لتمرّح. أعطه الأرض لأنه
سيستعيد مملكته، وسيستد لك، ستكون أسرته وأسرّتك حليفين للأبد.

فهم الملك، وأعطاه الأرض. وأقيم لسوجولون آخر تكريم فى
موكب ملكى.

العودة

لكل إنسان بلده وإذا قيل إن مصيرك يتعين أن يتحقق في ذاك البلد، فلا يقدر الناس على شيء دونه. لم يستطع مانسا تونكارا حجز سونجاتا، لأن مصير ابن سوجولون، كان قد ارتبط بمصير الماندينج. كما لم تستطع غيرة زوجة أب شرسة وخبيثة أن تعدل لحظة واحدة في مجرى المصير العظيم.

ليست حياة الثعبان، عدو الإنسان، طويلة، غير أن الثعبان، لأنه يعيش مختبئاً، سيموت مسناً دون شك. إن جاتا الآن، كان ذا قامة قادرة على مواجهة أعدائه. ففي سن الثامنة عشرة، كان له مهابة الأسد وقوة العجل، أما صوته فكان له تأثير وسطوة، عيناه جمر متوهج، أما نراعه فكانتا من حديد: كان رجل سلطة.

منح موسى تونكارا، ملك ميماء، نصف جيشه لسونجاتا، وأكثرهم مهارة، وقد أهلكوا أنفسهم للحاق بسونجاتا في مغامرته الكبرى. فسلح فرسان "ميماء"، الذي شكله بنفسه، يشكل درعه الحديدي. خرج سونجاتا من المدينة مرتدياً على الطريقة الإسلامية في ميماء، على رأس جيشه الصغير، لكنه المرعب، يصحبه الشعب عن بكرة أبيه بأمنيته، وكان محفوفاً بخمسة من رجال الدين من الماندينج. وامتطى ماندينج بوري وهو يزهو فخراً إلى جانب أخيه.

وشكل فرسان "مماكا" درعا حديديا خلف جاتا. وأخذت القوات اتجاه واجادو، ولم يكن جاتا يملك قوات كافية للمواجهة المباشرة مع سوماؤرو، لذا نصحه ملك ميمبا بالذهاب إلى واجادو ليأخذ نصف رجال الملك سوماالا سيسيه، وكان قد أوفد رسولا على عجل إلى هناك، حتى إن ملك واجادو ذهب بنفسه للقاء سونجاتا مع قواته، فقد قدم إلى ابن سوجولون نصف سلاح فرسانه، وبارك الأسلحة. وهنا قال ماندينج بوري لأخيه:

- جاتا! أعتقد أننا نقدر على مواجهة سوماؤرو الآن؟

- قال سونجاتا: مهما كانت الغابة صغيرة فإنك ستجد فيها دائما ما يكفي من الألياف لتوثيق شخص. العدد لا يهم، فالقيمة هي ما يعول عليه، فبسلاح فرسانى سأشق طريقى حتى الماندينج.

أصدر جاتا أوامره: سنتجه صوب الجنوب، لنلتف حول مملكة سوماؤرو، وهدفنا الأول هو بلوغ مدينة طابون، تلك المدينة ذات الباب الحديدى والتى تتوسط الجبال. وكان سونجاتا قد وعد فران كامارا أن يمر على طابون قبل عودته إلى الماندينج، وكان يأمل أن يجد صديق طفولته وقد صار ملكا.

كان السير حثيثا وعلى مراحل وكان المارابو سينبان مارا سيسيه وماندان بيرتيه يقصان على جاتا تاريخ الملك ذى القرنين والكثير غيره من الأبطال، لكن جاتا كان يفضل من بينهم ذا القرنين،

أى ملك الذهب والفضة، الذى شق العالم من الغرب إلى الشرق، وكان يريد أن يتفوق على نمونجه عبر امتداد أراضيه وأموال خزائنه.

وفى هذه الأثناء، كان سوماؤرو كائتيه، ذلك الذى كان عرافاً عظيماً، كان قد علم أن ابن سوجولون بدأ المسيرة وأنه قُسم يطالب بـ الماندينج. فقد كانت الأرباب قالت له أن يستبق الشر ويهاجم سونجاتا، لكن الثروة تعمى الإنسان. وكرس سوماؤرو نفسه لمحاربة فاكولى، ابن أخته المتمرد الذى وقف فى وجهه. وقبل أن يشن الحرب عليه، كان اسم جاتا قد عرف فى كل المملكة. فهؤلاء الذين على الجبهة الغربية والذين رأوا جيشه ينزل ناحية الجنوب، أثاروا ضجيجاً فوق العادة. أما فران كامارا، صديق سونجاتا الذى كان قد اعتلى العرش ذاك العام، فقد ثار بدوره ضد سوماؤرو وتمرد عليه. واستبدل فران كامارا سياسة الحكمة لملك طابون العجوز، بأخرى داعية للحرب. وكان كامارا قد أطلق دعوته للحرب معتزلاً بقواته، وخاصة أنه كان مدفوعاً بالوصول القريب لسونجاتا، الذى صار يدعى حالياً "طابون وانا" (رجل طابون المرعب). أطلق كامارا نداءه لكل الحدادين والجالونكيه ساكنى الجبل.

أرسل سوماؤرو مفرزة مع ابنه سوسو بلاً، كى يقيم العقبات فى وجه سونجاتا، ويسد الطريق إلى طابون أمامه. ويكاد سوسو بلاً أن يكون فى نفس سنوات عمر ابن سوجولون، وفورا وضع قواته فى مدخل الجبل، لتعرض تقدم جاتا نحو طابون.

وفى المساء وبعد يوم طويل من السير، وصل سونجاتا أمام الوادى الكبير الذى يؤدى إلى طابون وكان يعج بالرجال، فقد كان سوسو بلا قد نظم رجاله فى كل الوادى، حيث استقر البعض منهم على المرتفعات التى تطل على المدخل. وحينما رأى سونجاتا التشكيلات القتالية لرجال سوسو بلا، استدار ناحية رئيس أركانه ضاحكا.

- لماذا تضحك، يا أخى، إنك ترى جيدا أن الطريق قد سدا!

- نعم، فليس جنود المشاة هم من يستطيعون إيقافى فى مسيرتى نحو الماندينج. توقفت القوات، فقد كان من رأى كل قادة الحرب الانتظار لليوم التالى لخوض المعركة، لأنهم قالوا إن الجنود متعبون.

- المعركة لن تكون طويلة، سيكون أمام الجنود الوقت للراحة. يجب ألا ندع الوقت لسوماؤرو لمهاجمة طابون.

كان سونجاتا عنيفا لا يلين: فأصدر الأوامر، وبدأت طبول تام تام تدق لتعلن الحرب. وامتنطى صهوة جواده البهى، يستعرض فخرا أمام قواته، وأمن مؤخرة الجيش، الذى يتشكل من جزء من فرسان واجابو، واندفع نحو أخيه الشاب ماندينج بورى، الذى كان قد استل سيفه مطلقا صيحة الحرب.

ذهل السوسو من هذا الهجوم المباغت، فالجميع كان يعتقد أن المعركة ستقع فى اليوم التالى. فالبرق يخترق السماء بسرعة أقل،

والصواعق تثير الرعب بوتيرة أقل، والفيضان باغت بدرجة أقل، حتى إن سونجاتا انقض على سوسو - بلاً وحداديه، وفي لحظة واحدة كان ابن سوجولون وسط السوسو، مثل أسد في حظيرة الغنم، والسوسو القتلى تحت سنايك خيله الجامحة يتصايحون، وحيثما استدار ناحية اليمين كان حدادو سوماؤرو يتساقطون بالعشرات، أما إذا استدار ناحية اليسار، كان سيفه يوقع الرعوس، مثلما تهز شجرة لتسقط ثمارها الناضجة. لقد ارتكب فرسان ميماء مجزرة بشعة. كانت الحراب الطويلة تخترق أجسادهم كسكين تغرزها في ثمرة الباباي. كان جاتا الذي يبادر دائماً بالهجوم يبحث عن سوسو بلاً، فلمحه، واندفع كأسد نحو ابن سوماؤرو شاهراً سيفه، ومع أن ذراعه قد وهن، في هذه اللحظة، تدخل محارب من السوسو ما بين جاتا وسوسو بلاً، فانشق إلى اثنين مثل ثمرة الكرنب، ولم ينتظر سوسو بلاً واختفى وسط حداديه. وحينما رأى السوسو قائدهم في هذه الحالة أدبروا الفرار، وسادت حالة من التشتت الرهيب. وقبل أن تختفى الشمس خلف الجبال، لم يكن قد بقي في الوادي سوى جاتا ورجاله. أما ماندينج بوري الذي كان يسهر على الرجال الذين نصبهم على المرتفعات، والذي يرى أن أخيه قد انتصر، فقد دفع ببعض الفرسان إلى المرتفعات لإزاحة السوسو، وظل يتعقبهم حتى سقوط الليل وأسر العديد منهم.

وصل "طابون وانا" متأخراً كثيراً، كان ابن سوجولون قد حاز على النصر فعلاً، وشكل اللقاء بين الجيشين الصديقين مناسبة

للاحتفال بالدق على طبول "تام- تام" أثناء الليل، في الوادى نفسه حيث كان هزم السوسو. وجلب "طابون وانا" قران كامارا مؤنا غذائية وافرة لجيش جاتا. وبعد أن رقصوا طوال الليل، عند الفجر دخل المنتصرون إلى طابون Tabon الحصينة مصحوبين بتهليل وابتهاج النسوة اللاتي صعدن إلى المرتفعات.

انتشر نبأ معركة طابون في سهول الماندينج مثل انتشار النار في الهشيم. وشاع أن سوماؤرو لم يكن في المعركة وأن قواته تفهّرت أمام سونجاتا. وكان هذا كافيا لمنح الأمل لكل شعوب الماندينج، وأدرك سوماؤرو أن عليه من الآن أن يعمل حسابا لهذا الشاب. وعلم سوماؤرو بنبوءات مستقبل الماندينج، لكنه كان لا يزال يثق في نفسه ثقة عمياء. ولما عاد سوسو بلاّ مع من استطاع إنقاذهم من معركة طابون، بادر والده بالقول:

- يا والدى! إنه لمن أسوأ الأمور ألا يقدر أحد على مواجهة أسد.

- قال سوماؤرو، كف عن الكلام! يا ابن الشقاء، إنك ترتعش أمام صبى في مثل منك! غير أن كلام بلاّ قد أثار بشدة مشاعر سوماؤرو، وصمم على السير إلى طابون مع أكبر عدد من قواته.

كان ابن سوجولون قد وضع خطة تتمثل فى: ضرب سوماؤرو، تدمير سوسو، والعودة منتصرا إلى نيانى، إنه يتصرف

الآن بخمسة فيالق من الجيش: للفرسان ومشاة ميماء وآخرين من واجادو، وثلاث فرق من جيش "طابون وأنا" - فران كامارا فكان يتعين عليه أن يمضى بأقصى سرعة فى شن الهجوم.

وقف سوماؤرو فى مواجهة سونجاتا، ووقع اللقاء فى ناجوبوريا فى البوريه، وكعادته أراد ابن سوجولون أن يشن المعركة فى التو، بينما كان سوماؤرو يفكر فى سحب سونجاتا إلى السهل، لكن جاتا لم يترك له الوقت لتنفيذ ذلك. جهز ملك سوسو، الذى أجبر على خوض المعركة، رجاله فى خلال وادى نا جوبوريا الضيق، بحيث يشغل جيشه المنحدرات من الميسرة والميمنة؛ بينما اعتمد سونجاتا تدابير قتالية فريدة، إذ شكل مربعا شديدا لإحكام، بحيث وضع فى صفوفه الأمامية رجال سلاح الفرسان، أما رماة الأقواس من واجادو وطابون فقد وضعهم فى الخلف. وكان سوماؤرو يقف على أحد التلال التى تشرف على الوادى، وقد عرفوه من قامته الطويلة وخونته التى انتصب عليها قرنان، وتحت هذه الشمس اللافتة دقت الطبول، وردت عليها التام والتام والبولون^(١) من هنا وهناك، وبخلت الشجاعة إلى قلب الجنود. وفى عذو وركض هجم سونجاتا بعنف، ولم يلبث السهل أن توارى خلف سحب من الغبار الأحمر، الذى أثارتة آلاف الأقدام والسنايك. ودون استسلام أوقف جنود سوماؤرو هذه الموجهة من الهجوم.

كان سوماؤرو كائنه ينظر من أعلى تلاله، كغريب عن المعركة. وحمى وطيس المعركة بين سونجاتا وملك طابون. ولوحظ

جاتا من بعيد بعمامته البيضاء، واستطاع سوماؤرو رؤية الثغرة التي فتحها وسط قواته. وكاد المركز أن يستسلم تحت الوطأة الساحقة لجاتا، فأصدر سوماؤرو إشارة، فتحرك الحدادون من التلال إلى أعماق الوادى لتطويق سونجاتا. آنذاك ودون أن يصدر جاتا- وهو فى غمرة القتال- أى أمر، تمدد المربع طولا، متحولا إلى مستطيل كبير، كان كل شىء متوقعا. كانت الحركة أشد سرعة حتى إن رجال سوماؤرو كانوا واقفين كالبلهاء ولم يستطيعوا استعمال أسلحتهم، وخلف جاتا كان رماة النبال من طابون وواجابو يجثون على الأرض، يقذفون بسهامهم إلى السماء التى تعاود السقوط بكثافة مثل وابل يتساقط من جديد فوق جنود سوماؤرو. وصعد صف جاتا إلى التلال للالتحام، كمثل قطعة من المطاط التى تسحب. ولمح جاتا، سوسو- بلاً وانقض عليه، ولكن هذا الأخير اختفى. وأطلق محاربو ابن العجل صيحة النصر، وهرع سوماؤرو إليهم، فوجوده وسط الجيش، منح أبناء سوسو الشجاعة، وراه سونجاتا فأراد أن يفتح لنفسه طريقا ليصل إليه، وضرب يمنة ويسرة، وضار يطا بقدميه، والسنايك القاتلة لجواده^(٢) "Dafféké" قد غرست فى صدور المحاربين السوسو. ولما كان سوماؤرو الآن على مرمى سهمه، همز سونجاتا فرسه، وأطلق سهمه، فخرج وهو يثير صفيرا، وارتد السهم إلى صدر سوماؤرو كأنه اتجه إلى صخرة ثم سقط. وأعاد ابن سوجولون إطلاق سهمه، وبحركة من سوماؤرو أمسك السهم وهو يطير ورده إلى سونجاتا كمن يريد أن يقول له:

"انظر، فلا يستطيع أحد أن يهزمنا".

انتزع سونجاتا - وهو في غاية الغضب - نصله ورأسه مطرق واتجه نحو سوماؤرو، إلا أنه عندما رفع يده لضرب عدوه لاحظ اختفاء سوماؤرو، وقال ماندينج بوري الذي كان إلى جانبه وهو يشير إلى التلال:

- انظر يا أخي! عندئذ رأى سونجاتا سوماؤرو على التل يرتدى ثوبا أسود ويمتطي جواده! فكيف حدث ذلك؟ وهو الذي لم يكن سوى على بعد خطوتين فقط من سونجاتا، بأى قوة نقل إلى التل! وتوقف ابن سوجولون عن القتال للنظر فى أمر ملك سوسو. كانت الشمس فى البكور، وكان جنود سوماؤرو يرتعدون، رغم أن جاتا لم يعط أوامره بتعقب العدو: وفجأة اختفى سوماؤرو.

كيف نهزم رجلا قادرا على الاختفاء والظهور ثانية أين ووقتما يشاء؟ كيف نصيب محصنا ضد الحديد والسلاح؟ تلك كانت الأسئلة التى تدور فى خلد ابن سوجولون، الذى كان قد سمع قصصا كثيرة عن سوسو سوماؤرو، لكنه لم يعرها أى اهتمام. ألم يقل إن ملك سوسو يمكنه أن يأخذ تسعة وستين شكلا مختلفا ليختفى عن أعدائه. ويرى البعض أنه يستطيع أن يتحول إلى ذبابة، وهو فى أوج المعركة، ويأتى ليقلق خصمه، كما يستطيع أن يذوب مع الهواء حين يطوقه أعداؤه من مكان قريب وغير ذلك كثير.

لقد كشفت معركة نوجوبوريا لجاتا بوضوح أنه لى يقير ملك سوسو، تعوزه أسلحة أخرى.

كان جاتا فى مساء معركة نوجوبوريا سيد المكان، لكنه كان متكدراً. أصدر أوامره بترتيب المعسكر، وابتعد عن ميدان المعركة المملوء بصيحات الألم من الجرحى. وكان كل من ماندينج بورى وطابون يرمقانه بنظراتهما، لقد اتجه جاتا ناحية التل، وهناك كان قد رأى سوماؤرو، تلك بعد اختفائه المعجز وهو فى وسط قواته. ومن أعلى التل رأى كتلة جيش سوماؤرو وهى تبتعد وسط سحابة من الغبار.

كيف هرب منى؟ لماذا لم يُصب بجراح من سهمى ونصلى؟
كان يتساءل بينه وبين نفسه. من هو الجان الذى يحمى سوماؤرو؟ ما سر قوته؟؟

ترجل من فوق حصانه، وجمع حفنه من التربة التى كان قد وطئها فرس سوماؤرو. كان الليل قد اكتمل، لم تكن قرية نوجوبوريا بعيدة، وخرج الجالونكيه فى جمهرة لتحية سونچاتا ورجاله، وكانت النار قد أوقدت فى المخيمات حيث بدأ الجند فى إعداد الطعام، لكن أشد ما كان سرورهم عندما لمحوا تلك الموكب الطويل لبنات نوجوبوريا اللاتى تحملن على رؤوسهن أوانى الأرز الضخمة، وغنى الجنود أغنية جماعية للشابات، وكان رئيس القرية والأعيان يسرون فى الخلف.

هبط جاتا من على التلة واستقبل زعيم نوجوبوريا الجالونكيه،
لقد كان يعمل تابعا "لطابون وانا". وكان الجنود يرون أنه كان يوم
نصر لهم، لأن سوماؤرو فر هاربا. لقد تحولت طبول تام - تام
الحرب إلى تام - تام الفرح. وترك جاتا رجاله يحتفلون بما أسموه
نصرا، لكنه ظل وحيدا يفكر في خيمته: "في حياة كل إنسان، هناك
لحظة يسيطر فيها القلق عليه، والإنسان يتساءل حول مصيره،
وقدره". لكن في هذا المساء لم يكن ذلك هو القلق الذي استبد بجاتا،
بل كان يفكر في القوى التي يتعين عليه العمل معها من أجل
الوصول إلى سوسو- سوماؤرو. ولم يغمض له جفن طوال الليل.
وفي الصباح الباكر استيقظ المعسكر، وفي الطريق، أخبر الفلاحون
جاتا أن سوماؤرو ورجاله يسIRON حثيثا، فأمر جاتا رجاله بالسير
دون إبطاء، وفي المساء توقف الجيش لتناول الطعام والراحة. كان
هذا بالقرب من قرية كانكينييه kankigné. وأعد الرجال المعسكر
وسط السهل، بينما الحراس أخذوا أماكنهم على المرتفعات.

وكالعادة تجمع الرجال وفق قبائلهم وانهمكوا في إعداد الطعام.
كانت خيمة سونجاتا تتوسط المعسكر، تحيط بها أكواخ مؤقتة أقيمت
على عجل، بناها فرسان ميما.

وفجأة سمع صوت آلات الإنذار، ولم يكن لدى الجند الوقت
لحمل أسلحتهم لأن المعسكر كان مطوقا بالأعداء، الذين اندفعوا وسط
الظلام.

لقد اعتاد رجال ميماء على هذه الهجمات المباغتة، ففي المعسكر لم يكونوا قط يرخون مقود الخيول، كما كان يتوجب على كل جماعة عرقية أن تدافع عن نفسها، لأن المعسكر لم يشكل كتلة واحدة فقد انتشر الأعداء بكثرة مثل الجراد.

أما جاتا وفرسان ميماء، الذين لم يتمكن أحد من تطويقهم، فقد خفوا إلى نجدة "طابون وانا"، الذي بدا وقد هزم تحت هذا العدد. وفي الليل البهيم، يعلم الله وحده كيف يسلك الناس، لقد كسر ابن سوجولون الحلقة التي كانت تمسك بخناق "طابون وانا". وسرعان ما تمالك رماة السهام من واجادو أنفسهم، فأطلقوا القذائف إلى السماء والسهام المشتعلة التي كانت تسقط ثانية على العدو. وفجأة خيم الهلع والخوف، حيث تتحطم الشذرات المشتعلة على ظهور جنود سوماؤرو العارية وصرخات الألم الموجهة ترتفع إلى عنان السماء. وبدأ السوسو انسحابا متعجلا، مخلفين وراءهم العديد من الأسرى في أيدي رجال سوجولون -جاتا، عاهدين إلى طابون إعادة تجميع الرجال. فلاحق الأعداء بفرسانه حتى ما وراء قرية كانكينيه. ولما عاد كان القتال قد انتهى. إن الهجوم الليلي للسوسو، كان قد سبب هلعا أكثر منه خسائر حقيقية، وقد وجد على الأرض بالقرب من خيمة "طابون وانا"، جماجم مفتتة، لأن ملك طابون لم يكن يصيب رجلا مرتين. لم تكن معركة كانكينيه نصرا مؤزرا، بل أوهنت عزم السوسو. وعليه تزايد الخوف في صفوف جاتا، لذا غنى الرواة^(٣) أن

معركة كانكيتيه كانت رهيبه، وكان للرجال فيها أقل احتراماً من العبيد".

الهوامش:

(١) Bolons - هي أداة بأوتار تشبه الكورا Kora، لكنها لا تضم سوى ٣ أوتار بينما الكورا فيها ٢٧ وترًا. إن موسيقى البولون هي موسيقى للحرب، بينما Kora هي أداة لموسيقى الغرفة.

(٢) Daffeké اسم تفخيم لتمييز الفرس الجميل.

(٣) Kankigné - أوردت رواية ديوما Dioma أن معركة كانكينيه كنصف هزيمة لسونجاتا. والنشيد يعنى:

"أن المعركة كانت رهيبة وكان الرجال فيها أقل احترامًا من العبيد".

أسماء الأبطال

أساء سوماؤرو إدارة الهجوم المباغت على كانكينيه، فلم ينجح إلا في زيادة غضب سونجاتا. الذي أهلك كل مؤخرة جيش سوسو. ولحق سوماؤرو بسوسو لإعادة إعداد قواته، بينما فتحت القرى في كل مكان أبوابها لسونجاتا، وجند ابن سوجولون في كل هذه القرى جنودا من المشاة (السوقا).

وكما يسبق الضوء الشمس، فبالمثل انتشر نصر جاتا الذي عبر الجبال إلى كل سهول جوليبا.

وتجمع كل ملوك بلاد السافانا الثائرين، في بلدة سيبي Sibi تحت إمرة كامانجان. وهو صديق طفولة سونجاتا، وقد أصبح هو أيضا ملكا على سيبي. وكان كامانجان و "طابون وانا" أبناء عمومة: فالأول كان ملك الكامارا لدالكيمبون Dalikimbon، والثاني ملكا لحدادي كامارا يقال إنهم سينيكيمبون Sinikimbon. وهكذا كان ثلاثي نياني قد اهتدى إلى طريقه. أما فاكولي ابن شقيقة سوماؤرو، وكان قد ذهب حتى بلغ الجنوب لتجنيد المقاتلين من المشاة، وقد بيت النية على الانتقام من خاله واستعادة زوجته كيليا، التي سميت "المرأة ذات الثلاثمائة وثلاث وثلاثين أنية أرز".

كان سونجاتا قد دخل بلاد السهول بلاد جوبال Djobbal شديد اليأس، وأصبح كل شيء يشير إلى أن الماندينج العتيقة أصبحت

قريبة، حتى الأشجار - على مرأى البصر - كانت من أشجار بلاد الماندينج.

كان كل الحلفاء على موعد في سهل سيبي الكبير، وكان كل أطفال السافانا هناك، حول مليكهم، وأيضا كل أبناء الماندينج البواسل في انتظار ذلك الذي وعدهم القدر، والبيارق^(١) ترفرف من كل الألوان على المشاة الموزعين في قبائل.

بمن أبدأ؟ وبمن أنتهى؟

سأبدأ بـسييرا كومان كوناتيه، وهو خال سونجاتا الذى كان هنالك، وهو الجد الأول لأبناء بلد تورون Toron، وتشكل قواته التى تتسلح بالرماح سياجا متراسا كثيفا حوله.

سأذكر أيضا بفاونى كونديه Faony Kondé أو فاونى ديارا Faony Diarra ملك بلاد "دو"، التى أتت منها سوجولون. لقد كان الأمر قد انتهى بالخال أن تقدم لمواجهة ابن أخته. وكان فاونى ملك "دو" و "وكرى" محاطا بجنوده المدججين بالسهم القاتلة ويشكلون جدارا لا يمكن اختراقه حول علمه.

- سأذكر أيضا مانسا تراوريه ملك قبيلة التراوريه. ومانسا تراوريه هو الملك ذو البصيرة الذى كان ملكا فى سيبي. وهو يرى ما يحدث خفية مثلما يرى الآخرون ما يجرى أمامهم، وكان يتزاحم حوله جنود من المشاة، ورماة السهام المهرة، وعلى أكتافهم النياشين.

- أما أنت يا كامانجان، لن أقدر أن أنساك بين هؤلاء الذين
أشدت بهم، أنت أب للكامارا داليكيمبون.

فالكامارا المسلحون بسهام طويلة ينصبون حول كامانجان
رماحهم المتوعة المهددة.

وأخيرا كان هناك كل أبناء الماندينج، كل أولئك الذين يتحدثون
لغة " إنكو " N'ko، (١) أى كل أولئك الذين يتكلمون اللغة الفصحى
للماندينج، كانوا جميعا حاضرين فى سيبى.

ولما ظهر ابن العجل وجيشه اختلطت دقات الطبول والأبواق
والتام- تام مع أصوات الرواة. كان ابن سوجولون محاطا بفرسانه
الذين يتميزون بالجرأة. وكان فرسه يتقدم بخطى راقصة.. كانت
النظرات تحق فى طفل الماندينج، الذى أشرق مجدا وجمالا. ولما
صار فى مدى الصوت، أصدر كامانجان إيماءة: فسكتت الطبول
والتام تام والأصوات، وتقدم ملك سيبى، خارجا من بين الصفوف
نحو سونجاتا وصاح:

- يا ماغان سونجاتا، ابن سوجولون، ابن ناريه ماغان:
الماندينج عن بكرة أبيها تنتظر السلام عليك، أنا كامانجان كامارا،
ملك سيبى!

قال ماجان سونجاتا راقعا ذراعه:

- أحييكم جميعاً، يا أبناء الماندينج.. أحييك يا كامانجان، ها أنا
قد عدتُ ومادمتُ على قيد الحياة، أتنفس، فلن تكون الماندينج
مستعبدة. فالموت أهون من العبودية. سنحيا أحرارا فأجدادنا عاشوا
أحرارا، سأنتقم للعار الذي عانت منه الماندينج!

وهنا خرجت صيحة الفرح من آلاف الصدور التي ملأت
عنان السماء، وهدرت التام تام والطبول بينما الرواة ينشدون لحنا
على قوس بلا فاسيكيه.

وهكذا التقى سوجولون جاتا بأبناء الماندينج في سيبي.

الهوامش:

(١) كلمة Bandari - البنداري يراد بها العلم، أى العلم الصغير وهذه الكلمة مستعارة من العربية مثل كلمة راية، التى تدل على العلم الذى كان يحمله المارابو الكبار فى سالف الزمان فى تنقلاتهم وحاليا يرفع رؤساء المناطق الراية فوق دورهم.

(٢) كلمة N^o ko - الإنكو معناها "أقول" بالمالينكية - والمالينكى يحب أن يتميز عن غيره من الشعوب بدءا من لغته، فلغة الماندينج بالنسبة إليه لغة واضحة (Kangbé) وفى غاية السمو والوضوح. فكل هؤلاء الذين يتحدثون الإنكو هم فى الأساس مالينكيون.

نانا تريبان وبلا فاسيكيه

توقف سونچاتا وجيشه الباسل لبضعة أيام في سيبي، كان الطريق للماندينج سالكا، لكن سوماؤرو لم يكن قد هُزم. فقد أعد ملك سوسو جيشاً قوياً، يصل تعداد جنوده من المشاة بالآلاف، كان قد جند وحدات عسكرية من كل البلاد التي سيطر عليها واستعد للهجوم من جديد على الماندينج.

وكان سوجولون جاتا قد أعد ترتيباته بدقة في سيبي، فلديه الآن ما يكفي من الجنود المشاة لمواجهة سوماؤرو في سهل مكشوف، فلم يكن يقصد أن يمتلك الكثير من المحاربين. ولكي يهزم سوماؤرو يتوجب بداية تدمير قواه السحرية. وقرر سونچاتا. في سيبي أن يأخذ مشورة الأرباب. والأكثر شهرة بين الماندينج هناك.

وحسب نصيحتهم، كان يتعين على جاتا أن يضحي بمائة ثور أبيض ومائة حمل أبيض ومائة ديك أبيض. ووسط هذه المجازر أتى من أعلن لسونچاتا أن شقيقته نانا تريبان، وبلا فاسيكيه والذين أمكنهما الهرب من سوسو، قد وصلا. وهنا قال سونچاتا لـ "طابون وأنا:" "إذا كانت شقيقتي وبلا فاسيكيه قد استطاعا الهرب من سوسو، فقد خسر سوماؤرو المعركة".

عاد سونچاتا إلى سيبي تاركاً مكان الأضحيات والتقى شقيقته

وراويه:

- قالت نانا تريبان، أحييك يا أخى!

- أجاب: أحييك يا شقيقتى!

- قال بلا فاسيكيه: أحييك يا سونجاتا!

- رد.. أحييك يا راوى!

وبعد تحيات حارة، طلب سونجاتا إلى الهاربين أن يقصا عليه كيف استطاعا خداع بقظة ملك مثل سوماؤرو. بكت تريبان فرحاً، فهي منذ طفولتها كانت تعبر عن الكثير من التعاطف مع الطفل المعوق الذى كان هو سونجاتا، ولم تكن قط تضر له حقداً مثل أمها ساسوما بيريتيه.

- أتدرى جاتا! قالتها وهي تبكى: لم أكن أبغى أن تغادر البلاد، إنها والدتى التى فعلت كل ذلك. الآن ثمرت نياتى وتفرق الناس فى كل مكان، كما ساق سوماؤرو العديد منهم أسرى إلى سوسو.

وانفجرت باكية. كان سونجاتا حساساً لكل ذلك، لكنه كان مدفوعاً بالرغبة فى معرفة أية أمور عن سوسو. فهم بلا فاسيكيه الموقف وقال:

- يا تريبان، كفى دموعك، وقصى وتحديثى إلى أخيك. أنت تعلمين أنه لم يفكر قط فى إنك كنت مصدر إيذاء له، زيادة على أن كل ذلك كان قدراً.

- عندما غادرت الماندينج، أرسلني أخي (عنوة) إلى سوسو لأكون زوجة لسوماؤرو. لأنه يخشاه كثيرا. وبكيت كثيرا في أيامي الأولى. ولما تبينتُ أنني ربما لم أكن قد فقدت كل شيء، استسلمت مؤقتا وأصبحت أعامل سوماؤرو بلطف، حتى صرت المرأة التي يصطفونها من بين نساءه العديداً. وأصبح لي غرفة في البرج الكبير، حيث يقيم. عرفت كيف أتملقه، وأجعله غيورا، وسرعان ما صرت موضع ثقته. تظاهرت بکراهيتي لك، وأشارك أُمي حقدها الذي تكنه لك. وقيل إنك ستعود يوما ما، لكنني أكدتُ له، أنك غير عازم على المطالبة بمملكة لم تكن تملكها قط وأنتك سافرت على ألا تعود ثانية إلى الماندينج. في هذه الأثناء كنت على علاقة وثيقة ببلا فاسيكيه، فكلانا يريد اكتشاف سر القوة السحرية لسوماؤرو.

وذات ليل هاجمت سوماؤرو بعنف وقلتُ له: "قل لي، يا من يناديه الملوك وهم يرتجفون، قل لي يا سوماؤرو هل أنت رجل مثل الآخرين، هل أنت اللد للجان الذين يحمون البشر؟ لا أحد يقدر أن يتحمل بريق عينيك، قوة ذراعك بعشرة أذرع، قل لي، أيها الملك، يا ملك الملوك، قل لي أي جان يحميك حتى أقدر له أنا أيضا". هذا الكلام ملأه كبرياء، لقد ازدهى لي بقوة "التانا" Tana، وفي ذلك المساء أدخلني غرفته السحرية وأخبرني بكل شيء.

"وهكذا ضاعفت من حماسي أن أبين له إخلاصي لقضيته، وبدوت أكثر إلحاحا منه، بل هو الذي انتهى به الأمر إلى أن يقول

لى تحلى بالشجاعة، وأنا لم نفقد شيئاً بعد. أثناء ذلك أعددت بالاتفاق مع بلا فاسيكيه - للهرب المحتوم. لا أحد فى الحرم الملكى يراقبنى، وأنا أعرف كل خفاياه. وذات مساء وكان سوماؤرو، غائبا غادرت البرج الرهيب. كان بلا فاسيكيه ينتظرنى أمام الباب، الذى كنت احتفظ بمفتاحه، وهكذا يا أخى، غادرنا سوسو.

استطرد بلا فاسيكيه: "لقد هرعنا نحوك، لقد جعلنى خبر انتصار طابون أفهم أن الأسد كسر أغلاله".

يا ابن "سوجولون، أنا القول وأنت الفعل، لقد بدأ مصيرك الآن".

غمرت السعادة سونچاتا لاستعادته شقيقته وراويه، والآن لديه المنشد وبكلامه يخلد ذكراه. فلن يكون هناك أبطال إذا ما نسى الناس مآثرهم، لأننا نسعى لإثارة إعجاب هؤلاء الذين يعيشون، وندعو لإجلال أولئك الذين يتعين مجيئهم.

لقد أخبر جاتا أن سوماؤرو كان يتقدم على طول النهر، وكان يريد أن يسد عليه الطريق للماندينج. كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق؛ ولكن قبل مغادرة سيبي، نظم سونچاتا حفلا راقصا فى المعسكر على نقات التام تام بغية أن يوحد بلا فاسيكيه - بكلامه - قلوب الجنود. وفى وسط الدائرة الكبيرة التى شكلها الجنود، امتدح بلا فاسيكيه أبطال الماندينج. وقال لملك طابون:

- أنت يا من تستطيع بذراعك الحديدية أن تطيح بعشرة
رعوس في مرة واحدة، أنت يا "طابون وانا" ملك السينينكيمبون
والديالونكييون. يمكنك أن تكشف لي ما أنت بمستطيع عمله، خاصة
قبل أن يتم العمل العظيم؟

لقد أثارت أقوال الراوى، فران كامارا، فامتطى فرسه السريع،
وحمل سيفه وأتى للوقوف أمام جاتا وقال له:

- ياماغان سونجاتا، أجدد لك قسمي أمام جميع المالينكا
المجتمعين هنا، أقسم أن أنتصر أو أموت إلى جواركم، ستتحرر
الماندينج ودون ذلك سيموت حدادو طابون! أطلقت قبائل طابون
صيححات الموافقة وهم يستلون أسلحتهم. أما فران كامارا الذى أثارته
صيححات جنوده فقام بغمز فرسه وأسرع إلى المقدمة، حيث فتح له
المحاربون الصفوف، وانقض على شجرة كبيرة وبضربة من سيفه،
قطع الشجرة العملاقة كما يقطع الباباى، وصاح الجيش المذهول:

- واسّا.. واسّا... آى ^(١) تعبيراً عن الفرح بلغة المالينكى.

ثم عاد إلى سونجاتا وهو يشير سيفه، وقال ملك طابون:

- فى سهل جوليا سيهاجم حدادو طابون نظراءهم من سوسو،
وسيصطف الأبطال بالقرب من جاتا.

استدار بلاً فاسيكيه ناحية كامانجان ملك سيبى، وخال ملك
طابون، وقال:

- أين أنت يا كامانجان، أين فاما - جان^(٢)، أين ملك الكامارا
الداليكيمبون، يا كامانجان يا ملك سيبي.. أحبيك.. لكن ماذا سأقول
للأجيال القادمة عنك؟

قبل أن ينهى بلاّ فاسيكيه كلامه، أطلق ملك سيبي صيحة
الحرب، وحث جواده الوثاب. وكان الجنود المندهشون ينظرون إلى
هذا الفارس المقاتل، وهو يتوجه ناحية الجبل المطل على سيبي...
وفجأة ملأت السماء قرقة: ارتعدت الأرض تحت أقدام الجنود،
وغطى الجبل بسحابة حمراء من الدخان. أهى نهاية العالم؟... رويدا
تبدد الدخان ورأى الجنود كامانجان يعود، ممسكا بقطعة من السيف،
أما جبل سيبي الذى اخترقه من جانب إلى الآخر، فقد أبان عن نفق
عريض.

كان الإعجاب قد بلغ مداه: ظل الجيش صامتا. أما ملك سيبي،
ودون أن ينطق، فقد ذهب ليصطف بجانب سوجولون جاتا.

وهكذا نوّه بلاّ فاسيكيه باسم كل قائد من القواد الذين أنجزوا
مهام عظيمة. ومن ثمّ، قام الجيش - وقد حاز قائده على ثقته -
بمغادرة سيبي.

الهوامش:

- (١) Wassa- Wassa Ayé - صيحة للتعبير عن الفرح بالمالينكية.
- (٢) Fama- Djan تعني "الرئيس ذا القامة الطويلة". ومتأخرا، منذ عصر كانكو - موسى بوجه خاص، فإن Fama ستكون لقب حاكم المقاطعة، وكلمة Farin ستكون خاصة بالحكام العسكريين و Farin - Ké يراد بها "المحاربون البواسل".

كرينا Krina

أقام سونجاتا معسكره في داياالا، في وادي جوليبا وأصبح الآن هو الذى يسد الطريق إلى الجنوب أمام سوماؤرو كانتيه. وحتى ذلك الحين كان سونجاتا وسوماؤرو يتقاتلان دون إعلان الحرب. إذ لا تُشن الحرب دون الإعلان عن سببها، فهؤلاء الذين يتقاتلون يتعين عليهم مسبقاً، إصدار إعلان تظلم، وبالمثل فلا يتعين على العراف مهاجمة أحد دون أن ينسب إليه عملاً خاطئاً. كذلك فالملك يتوجب عليه ألا يهجم على أحد دون الإفصاح عن سبب لجونه للحرب.

تقدم سوماؤرو وحتى كرينا بالقرب من قرية داياالا على نهر الجوليبا، وصمم على إثبات حقوقه قبل الاشتباك مع العدو.

كان سوماؤور يعرف أن سونجاتا عراف أيضاً، وبدلاً من إيفاد وفد رسمي أسرّ بكلامه إلى إحدى بوماته. وحط طائر الليل على سطح خيمة سونجاتا وتكلم. فما كان من ابن سوجولون إلا أن أرسل بدوره بومته إلى سوماؤرو. وهذا هو حوار الملكين العرافين:

- قال سوماؤرو: قف، أيها الرجل الشاب. من الآن أنا ملك الماندينج؛ إذا كنت تريد السلام، فعد من حيث أتيت!

- سأعود، يا سوماؤرو، لاستعيد مملكتى. فإذا أردت السلام، عليك بتعويض حلفائى عن خسائرهم، وتعود إلى سوسو، حيث أنت الملك.

- أنا ملك الماندينج بقوة السلاح وتوطدت حقوقى بانتصارى.

- إذن سأنزع منك الماندينج بقوة السلاح، [وسأطردك من مملكتى].

- لتعلم أننى نبت الصخور المتوحش، فلن يخرجنى أحد من الماندينج.

- لتعلم أيضا أن فى معسكرى سبعة قادة من الحداين، الذين يفجرون الصخور، أى سأكلك أينما النبات!

- أنا الفطر السام الذى يدفع بالعنيد للتقيؤ!

- أنا الديك الجائع، الذى لا يؤثر فيه السم!

- كن عاقلا، أيها الصبى الصغير. إنك ستحرق قدميك بنفسك، فأنا الرماد المحرق!

- أنا، المطر الذى يطفى الرماد، أنا الرعد العاصف، الذى سأنتزعك!

- أنا شجرة القابوق الضخمة، التى تنظر من على من فوق هامات الأشجار الأخرى!

- أنا الشجرة ذات العروش الكثيفة التى ترتفع عن قمة
الأشجار العملاقة فى الغابات!

- كف عن المناقشة، فلن تأخذ الماندينج!

- لتعلم يا سوماؤرو أنه لا مكان لملكين على نفس الجلد
الواحد، وستتخلى لى عن المكان!

- إذن، بما أنك تريد الحرب، سأشن عليك الحرب. لتعلم أيضا
أننى قتلت تسعة ملوك، وتزين رءوسهم غرفتى، ولعمري تبأ لك
فأسك ستأخذ مكانها بجانب روؤس أولئك المتهورين أمثالك!

- هبى نفسك، يا سوماؤرو، فالأذى الذى سينصب عليك،
وعلى خاصتك، لن ينتهى عما قريب.

هكذا تحدث كل من سونجاتا وسوماؤرو. وبعد حرب الكلام
كان على السيوف حسم الخواتيم. كان ابن سوجولون داخل خيمته
حينما أخبروه بوصول فاكولى، ابن أخت سوماؤرو النائر. حمل
الجميع السلاح، وصف قادة الحرب رجالهم، ولما انتظم كل شيء
داخل المعسكر، استقبل جاتا والقادة الماندينكا فاكولى الذى كان
متبوعا بمحاربيه، ووقف فاكولى أمام سونجاتا وتحدث هكذا:

- أحبيك يا سونجاتا، أنا فاكولى كوروما، ملك قبيلة حدادى
كوروما، سوماؤرو وهو شقيق والدتى كاسيا. لقد حملت السلاح فى
وجه خالى لأن سوماؤرو أهاننى، وبدون خوف أو وجل من ارتكاب

المحارم. فقد مضى فى الصفاقة حتى بلغ به الأمر أن اختطف زوجته كلياً.

وأنت، لتستعيد مملكة آبائك، ستحارب سوماؤرو، لدينا الهدف نفسه، سأضع نفسى تحت إمرتك، سأحضر لك الحدادين ذوى الأيدي الباطشة، سأحضر لك جندا لا تعرف قلوبهم الخوف، يا سونجاتا، أنا ورجالى لك!"

قال "بلا" راوى سونجاتا:

- يا فاكولى، فلتأخذ مكانك بين أقرانك، الذين أصابهم ظلم سوماؤرو، هيا، فالمحب للعدل والمنصف سيلحق بك فى عقر داره. فإذا ما عهد بقضيتك إلى ابن سوجولون، فلن تستطيع أن تفعل أفضل منه!

أصدر سونجاتا إشارة تعنى أن الراوى قد أجاد الحديث، لكنه أضاف:

- أدافع عن الضعيف، أدافع عن البرىء، يا فاكولى؛ لقد عانيت من الظلم، وأعترف بحقك، ولكن قادتى من حولى، ويتعين على معرفة رأيهم.

وافق كل قادة الحرب، وصارت قضية فاكولى هى قضية جاتا، ويجب إعادة الحق للرجل الذى أتى يلتمس العدالة.

وهكذا استقبل سونجاتا، فاكولى دا- با، ففاكولى هو المفوّه بين
قواده فى الحرب.

كان سونجاتا يريد الانتهاء إلى حل مع سوماؤرو فى هذا
الموضوع قبل الأيام الشتوية. فجيّش معسكره وسار نحو كرينا حيث
عسكر سوماؤرو. وفهم هذا الأخير أن لحظة المعركة الحاسمة قد
أتت. ونظم سونجاتا رجاله على التلة الصغيرة التى تطل على
السهل، كانت المعركة الحاسمة فى اليوم التالى.

وفى المساء، أقام جاتا حفلا كبيرا، كى يقوى من عزم
الرجال، وكان حريصا على أن يستيقظ رجاله فى الصباح
مسرورين، وذبحت العديد من العجول. وفى ذلك المساء، استعرض
بلا فاسيكيه- أمام كل الجيش- تاريخ الماندينج القديم وناجى سونجاتا
الذى كان يجلس وسط ضباطه هكذا:

- أتوجه إليك الآن، يا ماغان سونجاتا، أتحدث إليك يا ملك
الماندينج، يهرع إليك الملوك الذين اغتصبت حقوقهم. لقد جاء الوقت
الذى تنبأت به الجان لك! يا سونجاتا، إن الممالك والإمبراطوريات
على صورة الإنسان، مثله توالد وتشب وتختفى، ويجسد كل ملك
لحظة فى هذه الحياة. ففى سالف الزمان بسط ملوك واجادو مملكتهم
على كل البلاد التى يسكنها الرجل الأسود، لكن الدائرة أغلقت، ولم
يعد الواجادو سيسييه سوى أمراء صغار فى أرض مقفرة. واليوم

تنتصب مملكة أخرى. قوية، هي مملكة سوسو: فقد دفع الملوك الصاغرين إتاواتهم إلى سوسو. فغطرسة سوماؤرو لا تعرف حدودا، وقسوته في مستوى طموحه. فهل سيحكم سوماؤرو العالم؟ نحن ملزمون، نحن رواة الماندينج على نقل الذل والإهانات التي وجهها ملك سوسو إلى البلاد للأجيال القادمة؟ كلاً يا أبناء "البلاد المشرقة" تهالوا فملك سوسو ملك الأمس فحسب، أما ملك الماندينج فيؤرخ له منذ عصر "بلال"، فلكل مملكة طفولتها. ويريد سوماؤرو أن يتخطى الزمن، ولكن ستتهار مملكة سوسو من تحته، مثل الجواد المتعب تحت أقدام خياله!

"أنت، يا ماغان، أنت الماندينج، ومثلك فللماندينج طفولة طويلة وصعبة:

فقد سبقك على عرش نياني ستة عشر ملكا. ستة عشر ملكا حكموا البلاد وبحظوظ مختلفة. فقد صار الكيتا رؤساء قبيلة بعد أن كانوا رؤساء قرى ثم ملوكا، ستة عشر جيلا وطفوا فيها سلطتهم. أنت تتشبث بالماندينج مثلما تتشبث شجرة القابوق بالأرض، بجذورها القوية والعميقة. ولمواجهة العاصفة تحتاج الشجرة إلى جذور طويلة، وأفرع مليئة بالعقد، ألم تكبر الشجرة يا ماغان سونجاتا!

"لتعرف يا ابن سوجولون، أنه لا مكان لملكين حول نفس أنية الأرزا! فحينما يأتي ديك غريب إلى حظيرة الدواجن، يسعى الديك

القديم إلى شن معركة معه، وتنتظر الدجاجات الطيحات ما إذا كان القادم الجديد سيفرض نفسه أم سيخضع؟ لقد جئت إلى الماندينج، حسنا! افرض نفسك، ومستقرض القوة قانونها، حيث السلطة لا تقبل أية شراكة.

"اصنع لما قام به أجدادك الأولون، لكي تعرف ما يتعين عليك فعله.

"إن بلال، وهو الثاني الذي يحمل هذا الاسم، غزا الماندينج القديمة. ولا تال كالابي غزا البلاد الواقعة بين جوليا وسانكاراني. أما لاهيا تول كالابي ذو الذاكرة الشهيرة، فقد جلب البركة الإلهية على الماندينج، بذهابه إلى مكة. وجعل مامادي كاني من الصيادين محاربين، وأعطى القوة المسلحة إلى الماندينج. أما ابنه بامارين، تانيوكلين ذلك الملك الحقود الميال إلى النار، فقد أربع الماندينج بهذا الجيش. وماغان كون فاتا المسمى ناريه ماغان الذي تدين له اليوم، جعل السلام يسود في جميع أرجاء الماندينج، وقدمت الأمهات اللاتي يرفلن في السعادة شبابا كثيرا للماندينج.

"أنت ابن ناريه ماغان، وأيضا ابن أمك سوجولون، المرأة العجل التي تقهر أمامها العرافون الأشداء من الخوف، أنت تملك قوة الأسد وعظمته ومقدرة العجل وبأسه.

قلت لك ما ستعلمه الأجيال القادمة عن أجدادك، لكن ماذا باستطاعتنا أن نحكي لأبنائنا، كي تظل نكراك حية؟ ماذا علينا أن

نعلمه إلى أبنائنا عنك؟ أية مفاخر لا سابق لها، وأية أعمال لا تتسى،
ولأية أعمال جريئة حاسمة سيندم أبنائنا لأنهم لم يعيشوا في عصر
سونجاتا؟

"الرواة هم أناس الكلام، وبالكلام يهبون الحياة لأعمال الملوك،
إلا أن الكلام ليس إلا كلامًا، فالقوة تكمن في الفعل، فكن رجل أفعال،
لا تجبني بالكلام، بل أرني غدا في سهل كرينا ما تريد أن أقصه على
الأجيال القادمة. وغدا، فلتسمح لي أن أغني لحن الطيور الجارحة
التي تحوم على أجساد آلاف السوسو الذين سيغشيهم سيفك قبل
المساء!"

وهكذا عشية كرينا، أعاد بلا فاسيكيه على سونجاتا تاريخ
الماندينج، ليبدو في الغد خليقًا بأجداده الأوائل.

وفي مطلع الفجر، ذهب فاكولي لإيقاظ جاتا، وإخباره أن
سوماؤرو كان قد بدأ في إجلاء جنوده عن كرينا، وظهر ابن
سوجولون وهو يرتدى زى ملك صياد، كان يرتدى سروالا ذا لون
ذهبي. وأصدر أمرا بنشر الجنود المشاة خلال السهل؛ وبينما كان
القادة منشغلون، إذا بماندينج بوري ونانا تريبان يدخلان إلى خيمة
جاتا.

— قال ماندينج بوري: يا أخي. هل أعددت القوس؟

— أجاب جاتا: نعم، انظر!

وخلع قوسه من فوق الحائط ومعه السهم القاتل. لم يكن قط
سهما من حديد بل كان من الخشب؛ وضع في طرفه ظفر ديك
أبيض؛ وكان هذا الظفر هو "نانا" سوماؤرو، وهو السر التي عرفت
نانا تريبان أن تنتزعه من ملك السوسو.

- وقالت نانا تريبان: يا أخى، الآن يعرف سوماؤرو أننى
هربت من سوسو. لجهد فى أن تتقدم منه، لأنه سيهرب منك طوال
المعركة.

ترك كلام نانا تريبان، جاتا قلعا، إلا أن بلا فاسيكيه الذى كان
قد دخل الخيمة قال لسونجاتا: إن العراف رأى فى المنام نهاية
سوماؤرو.

كانت الشمس قد أشرقت من الناحية الأخرى للنهر، وكانت
تغمر بضيائها السهل كله. وانتشرت قوات سونجاتا خلال السهل بدءا
من النهر؛ أما جيش سوماؤرو فكان كثير العدد حتى إن جنودا آخرين
ممن ظلوا فى كرينا، صنعوا على الأسوار ليشاهدوا المعركة. وكان
قد سبق أن لوحظ سوماؤرو بغطاء رأسه العالى من بعيد، أما أجنحة
جيشه المترامى فكانت تلامس النهر من ناحية والتلال من الأخرى.

وكما حدث فى "تجوبوريا"، لم ينشر سونجاتا كل قواته؛ أمسك
برماه سهام واجادو والجالونكيه فى مؤخرة الجيش، مستعدين
للاتفاف ناحية اليسار باتجاه التلال تحسبا لاتساع المعركة، بينما كان

كل من فاكولى كوروما وكامانجان فى الصف الأول مع سونجاتا
وفرسانه.

وصاح سونجاتا بصوته القوى: An gnewa ^(١) أى إلى الإمام!
وتكرر الأمر من قبيلة لأخرى. وبدأ الجيش المسير، ولبت سوماؤرو
إلى اليمين مع فرسانه.

هاجم جاتا وسلاح فرسانه بحمية، إلا أن فرسان دياغان
أوقفوهم والتحموا فى قتال مميت: كما نشر "طابون وانا" ورماء
أقواس واجادو صفوفهم باتجاه التلال. وعمت المعركة كل السهل،
بينما الشمس المحرقة قد صعدت فى السماء. وكانت جياد مياما ذات
رشاقة خارقة للعادة. فقد قفزوا وأرجلهم الأمامية مرفوعة، وانقضوا
على فرسان دياغانكا. الذين تخرجوا على الأرض قتلى تحت سنايك
الخيول وسرعان ما تخاذل الدياغان وانسحبوا على عجل نحو الخلف،
لقد تم اختراق مركز العدو.

وهكذا وصل ماندينج بورى خائر العزم، ليعلن لسونجاتا أن
سوماؤرو الذى استعان بكل احتياطييه قد هجم على فاكولى وجنوده
الحدادين. وكان جليا أن سوماؤرو قد عمد إلى عقاب ابن أخته، الذى
اندحر بسبب عنف هجوم العدو. وكان رجال فاكولى قد بدعوا التخلي
عن الميدان، ولم تكن المعركة قد حسمت بعد.

وسحب سونجاتا - الذي كانت عيناه قد احمرتا من فرط الغضب- سلاح فرسانه باتجاه اليسار ناحية التلال حيث كان فاكولي يتحمل ببسالة ضربات خاله.

وحيثما مر ابن العجل، كان الموت يتلهى. وأعاد وجود سونجاتا التوازن حيث كان جنود سوسو بأعداد غفيرة. وبحث ابن سوجولون عن سوماؤرو، ولمحه وسط حومة القتال، وضرب سونجاتا يمنة ويسرة، فابتعد السوسو عن طريقه؛ أما ملك سوسو الذي لم يكن يريد أن يقترب، فقد انسحب بعيدا خلف رجاله. وكان سونجاتا يتابعه بنظراته، ووقف ومد قوسه، وانطلق السهم ولمس كتف سوماؤرو، ولم يترك ظفر الديك إلا خدشا بسوماؤرو، لكن أثر ذلك كان قوريا، وأحس سوماؤرو أن قواه قد تخلت عنه، وتلاقت نظراته بنظرات سونجاتا، وهو يرتعد الآن كمن أصابته الحمى. ورفع المهزوم عينيه إلى السماء، ورأى طائرا أسودا كبيرا يمر من فوق حومة القتال، وفهم أنه طائر الشوم.

- وهمهم، أنه طائر كرينا.

أطلق ملك سوسو صرخة عالية، وأدار مقود دابته وهرب. رأى السوسو الملك يفر ففروا بدورهم. إنها الهزيمة، وحوم الموت على السهل الكبير؛ وسالت الدماء غزيرة. فمن ذا الذي يمكنه أن يقدر أعداد السوسو الذين قتلوا في كرينا؟ كانت الهزيمة كاملة، واندفع سونجاتا في أعقاب سوماؤرو.

كانت الشمس تتوسط السماء، وكان فاكولى قد لحق بجاتا. وامتطى كل منهما جواده وتعبا الفارين. كان سوماؤرو متقدما بدرجة كبيرة، وانطلق ملك سوسو من خلال الدغل الجاف تاركا السهل، يتبعه ابنه بلاً وبعض القادة السوسو. ولما أسدل الليل أستاره، توقف كل من سونجاتا وفاكولى عند ضيعة صغيرة، وأخذا بها قسطا من الراحة والطعام، ولم ير أحد من السكان سوماؤرو. فواصل سونجاتا وفاكولى الملاحقة عندما لحق بهما رجال سلاح الفرسان من ميمما. لقد ركضا بجواديهما طوال الليل، وعند الصباح علم جاتا من بعض الفلاحين أن فرسانا مروا أثناء الليل. لقد تسلل ملك السوسو من كل الكتل المتجمعة. كان يعرف أن السكان، وهم يرونه في حالة فرار، لن يترددوا أبداً في الإمساك به، ليدخلوا في حظوة الرئيس الجديد. ولم يكن يتبع سوماؤرو سوى ابنه بلاً، وبعد استبدال الدواب عند طلوع الفجر، كان ملك السوسو لا يزال يركض باتجاه الشمال.

عثر سونجاتا بصعوبة على آثار الفارين، وكان فاكولى قد أدرك أن جاتا على دراية أكبر بهذا البلد، وكان من الصعوبة أيضا أن تعرف أى الرجلين يكنّ البغض والكراهية أكثر ضد سوماؤرو: فأحدهما ينتقم لبلاده المهان، والآخر كان مدفوعا بحب امرأة. وعند الظهيرة كانت جياد سونجاتا وفاكولى تلهث تعباً، ووقف من يقتفون أثر سوماؤرو عند يانكوماننا. وتناولوا بعض الطعام، وعلم سونجاتا أن سوماؤرو كان يتجه إلى ناحية كوليكورو، ولم يعط لنفسه وقتاً

سوى لاستبدال المطايا، واستأنف سونجاتا وفاكولى المسير فى الحال.
قال فاكولى:

- إننى أعرف طريقا أقصر كى نذهب إلى كولىكورو، وإن
كان طريقا وعرا وستجهد جيانا.

- قال جاتا: هيا بنا!

واندفعا إلى طريق وعر، ملئ بالحفر، يتقاطع عبر الحقول،
وهما فى طريقهما إلى الأدغال. وقال فاكولى وهو يشير بإصبعه
أمامه:

- انظر هناك، لترى التلال التى تنبئ عن بلوغنا كولىكورو.
لقد كسبنا الوقت!

- هذا أفضل! قالها جاتا ببساطة.

فى هذه الأثناء كانت الجياد قد أجهدت، كانت تسير بسرعة
أقل، ترفع أرجلها بعناء من على الأرض، ولما لم تكن هناك أية قرية
على مرأى البصر، ترجل سونجاتا وفاكولى كى يسمحا للمطايا
بالراحة، وكان لدى فاكولى فى سرج فرسه حقيبة صغيرة بها ذرة
بيضاء فقدم لهم الغذاء: واستراح الرجلان تحت شجرة، وقال
فاكولى: رغم أن سوماؤرو قد سلك طريقا سهلا لكنه طويل، لن
يصل إلى كولىكورو إلا مع الغسق. وقد كان يتكلم بوصفه رجلا جال

وصال بجواده عبر هذه البلاد. فاستأنفوا مسيرتهم، وارتقيا التلال؛
حتى بلغا القمة، فرمقا فارسين فى قاع الوادى يتجهان إلى الجبل.

- صاح جاتا: ها هما!

كان الليل قد أقبل، بعد أن كانت أشعة الشمس تداعب قمة جبل
كوليورو. وحينما رأى سوماؤرو وابنه اثنين من الفرسان خلفهما،
حسما أمرهما، وبدءا فى تسلق الجبل. وكان ملك سوسو وابنه بلا
كمن يركبان جيادا حديثة العهد. وضاعف فاكولى وجاتا من
مجهودهما.

كان الفاران على مرمى السهام، وصاح فيهما جاتا:

- قفا.. قفا!

كان فاكولى- مثله مثل جاتا- يريد الحصول على سوماؤرو
حيا، وقام زوج كيليا بانعطافة فى الطريق، وأحاط بسوماؤرو
وحاصره من اليمين. وقام بوثة وهو على فرسه، وكاد يضع يده
على خاله، لكن هذا الأخير هرب منه بانحرافة مباغتة، وفى اندفاعه،
اصطدم فاكولى ببلا، وتدحرج الاثنان على الأرض. نهض فاكولى
وأمسك بابن خاله بينما كان سونجاتا، الذى ألقى برمحه بكل قوته مما
أدى إلى سقوط فرس سوماؤرو، نهض الملك العجوز، وبدأ نزالا
على الأقدام. كان سوماؤرو شيخا قويا، كان يتسلق الجبل بكثير من
الرشاقة، ولم يكن جاتا يريد إحداث جرح به أو قتله بل يريد أخذه
حيا.

أوشكت الشمس على المغيب تماماً، وكان ملك سوسو قد هرب
من جاتا مرتين:

فسوماؤرو الذى بلغ قمة كوليكورو، نزل بسرعة على المنحدر
متبوعا بجاتا، وعلى اليمين رأى مغارة كوليكورو المظلمة، ودلف
إليها دون تردد. وقف سونجاتا أمام المغارة. فى هذه اللحظة وصل
فاكولى - وقام بقيد يدى سوسو بلا ابن خاله.

- قال سونجاتا، هناك، لقد دخل المغارة.

- قال فاكولى. إنها تقضى إلى النهر.

وسمع وقع أقدام الجياد، كانت عملية إطلاق فرسان ميمما
Mema. وفى الحال أرسل ابن سوجولون بعضا منهم باتجاه النهر،
وعمل على حراسة الجبل كله. كان الليل فى تمامه، دخل سونجاتا
إلى كوليكورو مع فاكولى، وهناك انتظر وصول بقية الجيش^(٢).

كان نصر كرينا مدويا، وذهبت فلول جيش سوماؤرو ليتم
حبسهم فى سوسو. فماذا عساه فاعل بإمبراطورية سوسو؟ كان
الملوك يعبرون عن إذعانهم لسونجاتا من كل مكان؛ فقد أرسل ملك
غيدىماجان إلى جاتا بوفد قوى، وفى الوقت نفسه قدم ابنته للزواج من
المنتصر، وتوافدت الوفود إلى كوليكورو، وحينما لحق الجيش كله
بسونجاتا، سار إلى سوسو أى مدينة سوماؤرو، سوسو تلك المدينة
الحصينة، مدينة الحدادين الفرسان المهرة فى تصويب الرماح.

وفى غيبة الملك وابنه، كان يقوم بالدفاع عن المدينة رئيس القبيلة ويدعى نومونكيبا، وسرعان ماكتس كل ما استطاع العثور عليه من المؤن فى الريف المجاور.

كانت سوسو مدينة بهية الجمال؛ كانت تضرب فى الريف بشراعتها الثلاثى من الأبراج المخيفة حيث تضم المدينة ١٨٨ مكانا حصينا. وكان قصر سوماؤرو يقف منتصبا كبرج عملاق من فوق المدينة كلها. ولم يكن لمدينة سوسو سوى باب واحد، باب ضخ من الحديد، من صنع أبناء الحروب.

كان نومونكيبا يأمل أن يمكن سونجاتا من سوسو، ففيها من أسباب العيش ما يكفى لمدة عام.

كانت الشمس قد بدأت فى المغيب حين ظهر سوجولون جاتا أمام سوسو البهية ووقف سونجاتا ورئيس أركانه يتأملان مدينة الملك العراف العظيمة؛ من أعلى التل وعسكر الجيش أمام السهل فى مواجهة باب المدينة الضخم. أضيئت الأنوار داخل المعسكر، وكان جاتا يريد الاستيلاء على سوسو فى الصباح؛ وقدم الطعام بكميات مضاعفة لرجاله والتام- تام(*) تفرع طوال الليل لإثارة الفاتحين لكرينا.

(*) وتعرف محليا باسم "طبله جيمبى".

وفى مطلع النهار، كانت أبراج المتاريس سوداء من كثرة الجنود المشاة. كما وضع جنود آخرون على المتاريس نفسها، إنهم رماة الأقواس. إن المانينكا، بارعون فى فن احتلال المدن. فوضع سونجاتا جنود الماندينج فى الصف الأول، والمساعدون فى الصف الثانى، تحت حماية دروع الأمان لرماة السهام. كان يتعين على السواد الأعظم من الجيش أن يهجم على باب المدينة. ولما أصبح كل شىء جاهزاً، أصدر جاتا أمر الهجوم. أعادت الطبول قرعها، وصدحت الأبواق. وبمثل هذا الحشد تحرك الصف الأول لجنود الماندينج، وهم يطلقون الصيحات المدوية، وقد رفعت الدروع فوق الرعوس، تقدم المانينكا حتى بلغوا مكاناً لا مخرج منه، وهنا بدا السوسو فى إلقاء أحجار غليظة كانت تنهمر كالمطر على المهاجمين. وفى المؤخرة كان رماة السهام الواجادو يقذفون بسهامهم على المتاريس، وعم الهجوم على المدينة من كل الجبهات. كان سونجاتا يملك احتياطياً مرعباً إنهم رماة الأقواس الذين كان ملك البوبو BoBo قد أرسلهم له قبل معركة كرينا مباشرة، وهم أفضل الرماة فى العالم. وجثا رماة الأقواس على ركبهم على الأرض وظلوا يلقون بالسهام المشتعلة فوق المتاريس، وعلى الجدران، فاشتعلت دور القش، وصعد الدخان كالإعصار. وأقيمت المدرجات فى مواجهة سور القصر؛ وكان طليعة الجنود (المشاة) من المانينكا فى الذروة. واستولى الهلع على السوسو لرؤيتهم المدينة وهى تحترق. وترددوا برهه، فقد أزيل

البرج الأثرى المشرف على الباب، لقد استولى عليه حدادو فاكولى، إذ كانوا قد دخلوا المدينة على صرخات النساء والأطفال التى أصابت السوسو بالذهول. لقد فتحوا الباب على مصراعيه أمام الجيش بكامل قواه وبدأت المذبحة، كانت النساء والأطفال بين السوسو الفارين يلتمسون العفو من المنتصرين. وصار جاتا وسلاح فرسانه الآن أمام البرج، القصر الرهيب لسوماؤرو.

لقد أحس نومونكييا بالضياع، وخرج للحرب والقتال. وهجم على جاتا شاهرا سيفه، لكن هذا الأخير تفاداه، وأمسك بالذراع المسلح لسوسو، وأركعه على ركبته حتى سقط السيف منه، ولم يقتله، وسلمه إلى ماندينج بورى.

لقد أصبح قصر سوماؤرو الآن تحت رحمة سونچاتا. وبينما السوسو يلتمسون العفو، دخل سونچاتا، مسبوقاً ببلافاسيكيه إلى برج سوماؤرو. وكان الراوى يعرف القصر إيان أسره فيه. ويعرف كل خباياه، فقاد سونچاتا إلى غرفة سوماؤرو السحرية. فلما فتح بلافاسيكيه باب الغرفة وجدها وقد تغيرت هيئتها منذ أصيب سوماؤرو بالسهم القاتل، فقد خارت قوى ساكنى الغرفة جميعا - فتعبان القدر كان يحتضر وكانت البومات تتخبط على الأرض على نحو مثير للرتاء. لقد نفق كل شىء فى منزل العراف الذى كان يستمد القوة من سوماؤرو. وأنزل سونچاتا تمانم ورقى سوماؤرو، وجمعوا كل نسائه أمام القصر، وأيضا كل الأميرات اللاتى كن قد اختطفن بالقوة من

أسرهن. وكانوا قد فرغوا من جميع الأسرى بعد أن قيدوا أيديهم خلف ظهورهم، وهكذا، وكما كان يريد سونجاتا، فقد استولى على سوسو ذات صباح وقبل أن ينتصف النهار.

ولما أصبح كل شيء خارج المدينة وأخرج كل ما يمكن أخذه، أصدر سونجاتا أمرا بإكمال التدمير: فأضرمت النيران في آخر ما تبقى من المنازل، واستعمل الأسرى في هدم الجدران. وكما أراد سونجاتا، دمرت سوسو من أساساتها.

نعم.. لقد دكت سوسو، اختفت هذه المدينة المزهوة ذات الكبرياء. وخيمت وحشة مرعبة على الأماكن التي كان الملوك يفنون إليها للتذلل أمام الملك الساحر سوماؤرو. واختفى أى أثر للدور، ولم يتبق شيء من قصر سوماؤرو ذى الطوابق السبع. صارت المدينة ساحة للخراب والكآبة، وأصبحت سوسو مكانا تأوى إليه عسافير الغابة وفراخ الحجل لتمرح. ومنذ خلت هذه الأماكن من ساكنيها، جرت سنين عديدة، وظهرت الأقمار مرات عديدة فى السماء، والبورين شجرة الشؤم^(٣) تمدد أشواكها وتتطلق وحيدة فى عاصمة سوماؤرو. ولم تعد سوسو تلك المزهوة ببهائها سوى ذكرى؛ ولا تتردد سوى فى أفواه الرواة، حيث تأوى إليها الضباع تبكيها فى الليل، وأيضا الأرانب البرية والظباء كى ترعى على موقع قصر سوماؤرو؛ ذلك الملك الذى كان يرتدى ملابس من جلود آدمية.

لقد اختفت سوسو من على وجه الأرض. إنه سونجاتا، ابن
العجل الذي أصاب هذه الأماكن بالوحشة.

وبعد تدمير عاصمة سوماورو، لم يعرف العالم سيدا آخر
سوى سوجولون جاتا.

الهوامش:

(١) An gnewa = إلى الأمام

(٢) الروايات كثيرة حول نهاية ملك سوسو، وتلك كانت رواية هامانا Hamana، أما رواية ديوما Dioma (جنوب سيغيري) فتذكر أن سوماؤرو، حين كان سونجاتا يتعقبه، دعا للمرة الأخيرة الجان الحامية، طالبا منهم ألا يتركوه يسقط في يد سونجاتا، أن يتحول إلى حجر على قمة كوليكورو.. وهناك روايات تذكر أن سوماؤرو، وقد أصيب من ظفر الديك في كرينا، اختفى من ميدان المعركة نفسه.

فبعد معركة كرينا، لم نسمع قط من يتحدث عن ملك سوسو؛ أما ابنه بلّا الذي كان قد أسره فاكولي، فقد اقتيد أسيرا إلى الماندينج.

(٣) Bouréin هي شجرة قزمية تنمو في الأرض القاحلة وهي نوع من جاردينيا الساقانا. والبورين خشبها محظور في المطابخ، فهو يجلب الشؤم.

الإمبراطورية

بينما كانت سوسو تترشح تحت ما جلبه لها أبنائها بأنفسهم، كان سونجاتا يزحف نحو دياغان Diaghan التي كان ملكها هو الحليف الأشد خطرا لسوماؤرو. لقد ظل مخلصا لقضية سوماؤرو بعد معركة كرينا، حيث انزوى في مدينته، فخورا بفرسانه. وكالعاصفة الهوجاء هجم جاتا على دياغان، وهي مدينة المارابو^(١). ومثلها مثل سوسو تم الاستيلاء عليها ذات صباح، وأمر سونجاتا بحلاقة رأس كل الشباب من الرجال وأعدّهم ليكونوا جنودا من المشاة.

كان سونجاتا قد قسم جيشه إلى ثلاثة فيالق: الأول تحت إمرة فاكولي كوروما، ويقاقل في البامبوجو، والثاني تحت إمرة فران كامارا ومؤلف من حداديه الفرسان، ويقاقل في جبال فوتا، أما سونجاتا ومعه معظم الجيش فيتجهون إلى كيتا، المدينة الكبرى.

كان كيتا مانسا ملكا ذا بأس، وكان تحت حماية جان الجبل الكبير الذي يشرف على مدينة كيتا Kita في كيتا كورون، وكان ثمة بركة صغيرة للمياه السحرية في وسط الجبل. فمن كان يصل إلى هذه البركة ويشرب من مائها يصبح قويا، لكن جان هذه البركة كانوا أشرارًا غاية الشر، وملك كيتا هو الوحيد فقط الذي استطاع الوصول للبركة التي تكتنفها الأسرار.

عسكر سونچاتا فى شرق كيتا، وطلب من الملك الإذعان له،
أجاب الملك كيتا مانسا، الذى يفخر بحماية جان الجبل، بعجرفة على
طلب جاتا. وكان جيش ابن سوجولون يضم أربابا معصومين من
الخطأ، وحسب نصائحهم استدعى جاتا جان مدينة كيتا - كورو،
وقدم قربانا لهم مائة ثور أبيض ومائة جدى أبيض ومائة ديك أبيض،
وقضى كل الديوك وهم مسجون على ظهورهم ووجوههم مرفوعة
للسماء: لقد استجاب الجان بالقبول، ولذا لم يتردد سونچاتا قط.

ومنذ الصباح أعطى إشارة الهجوم، وأنشد الجنود أثناء
هجومهم لحن القوس، أما بلا فاسيكيه، الذى يرتدى زى الراوى
الكبير، فقد امتطى الجواد بجانب جاتا. وعند أول هجوم انفتح الباب
تحت الضغط، ولم تكن هناك أية مذبحه، فقد أنقذ الجميع، الرجال
والنساء والأطفال. وقتل كيتا مانسا أمام قصره، وأقام له سونچاتا
جنازة ملكية.

ولم يأسر سونچاتا أى فرد فى كيتا، وصار سكانها، وهم من
الكامارا، حلفاءه.

وفى الغد، أراد سونچاتا الذهاب إلى الجبل لتقديم الأضحية
للجان وليقدم لهم الشكر على نصره على كيتا.. كان يتبعه كل
الجيش، إن جبل كيتا صلد كالجدار، وكان جاتا يزعم القيام فيه بجولة
ليتلقي مظاهر خضوع القرى العديدة الواقعة عند سفح جبل كيتا
كورو. وفى بودوفو؛ قرية الكامارا، كان هناك مؤاخاة عظيمة بين

قبائل كامانجان والسكان. كانوا يرقصون ويأكلون حول صخرة بودوفو المقدسة، واليوم أيضا يقدم الكامارا الأضحية لهذه الصخرة. فقط الكامارا هم من عرفوا احترام ديو Dio الأسلاف الأوائل. وفي المساء عسكر الجيش في كورون كوتو على جانب الجبل المواجه لكيّا. لقد أحسن للملك مانسا كورو استقبال جاتا، وتأخذ العديد من القبائل.

وعند بزوغ نهار اليوم سار جاتا، يتبعه بلا فاسيكيه وبعض أعضاء القبيلة الملكية من الماندينج إلى سفح صخره كبيرة، حيث ضحى بمائة ديك أبيض إلى جان الجبل ثم ذهب جاتا، بصحبة بلا فاسيكيه وحده، بحثا عن البركة. ووجدوها وسط الجبل فجثى على ركبتيه على حافة الماء، وقال:

- يا جان المياه، يا سيد "موغويا- جي"، يا سيد المياه السحرية لقد ضحيت لك بمائة عجل ومائة جدى ومائة ديك، لقد نصرتنى! لم أهدم كيّا وأتيت لأخلف كيّا مانسا، ولأشرب من المياه السحرية، أى "الموغويا- جيغى".

اغترف من الماء بكلتا يديه وشرب، فقد وجد الماء عذبا، وشرب منه ثلاث مرات، ثم غسل وجهه.

ولما عاد جاتا ليأخذ مكانه بين رجاله، كان لعينه بريق لا يحتمل، كانت تشع كالنجم، لقد غيرت المياه السحرية وجهه.

عاد سونجاتا إلى كيتا قادمة من كرو- كوتو، واستغرقت الرحلة حول الجبل يومين. وفي كيتا وجد وفودا من الممالك التي انتصر عليها فاكولي و"طابون وأنا". وأقام ملك الماندينج في كيتا لبعض الوقت، كان يذهب كثيرا للصيد مع أخيه ماندينج بوري وسيبي- كامانجان، فالتاس في كيتا لا يصطادون أبدا طريدة الجبال خوفا من الجان. أما سونجاتا فكان يصطاد في الجبل، لأنه صار الشخص المختار لدى الجان، فهو سيمبون منذ شبابه، فقد نهل تماما من فن سانيه ني كوندولون، أي من فن آلهة الصيد وقرينها.

وكان يستحم هو ورفاقه في نبع الجبل، والناس في كيتا يعرفون هذا النبع ويحيطونه بكثير من الإجلال والتقدير^(٢).

توجه سونجاتا مع جيشه الكبير من كيتا إلى "دو"، بلدة أمه سوجولون، وفيها استقبل جاتا مثل الخال الذي يستقبل ابن أخته، وذهب سونجاتا وبلأ فاسيكيه إلى سهل أورنتامبا الشهير وذلك بصحبة أحد أعضاء قبيلة التراوريه، إلى حيث شيد سكان "دو" تلة كبيرة في المكان الذي مات فيه العجل، وضحي سونجاتا على التلة بديك أبيض، فلما سجي الديك على ظهره هبت زوبعة عاتية انتزعت الأشجار وهي تتجه نحو الغرب!

قال بلأ فاسيكيه: انظروا! إن الزوبعة تسير نحو بلاد الماندينج. قال نعم: لقد حان وقت العودة إليها. ومن مدينة "دو"، أرسل سونجاتا

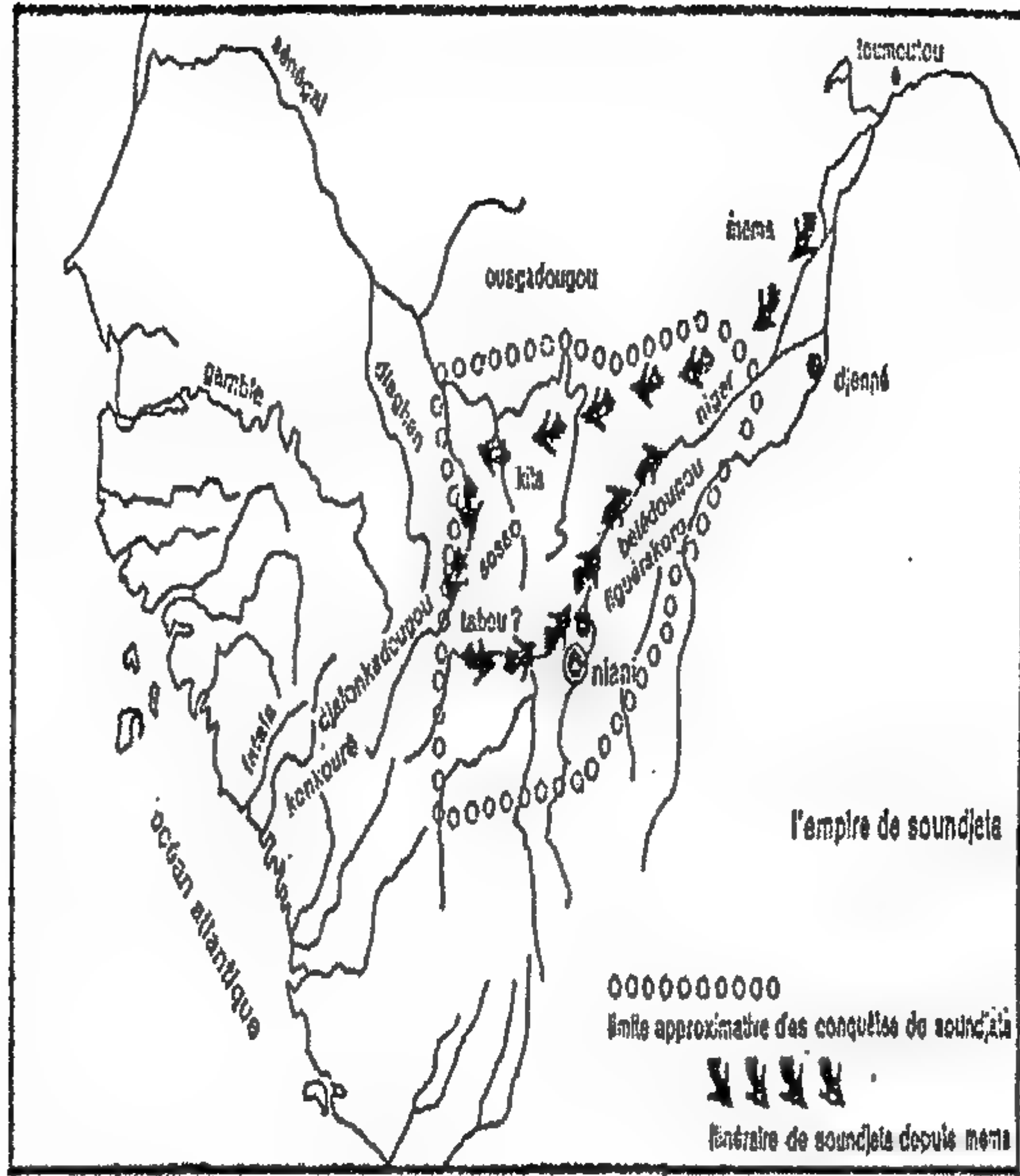
وفدا مهما إلى ميماء، محملا بهدايا ثمينة. وهكذا وفى الدين الذى كان فى عنقه، وأعلم الوفد، الملك أن أبناء سيبيه - تونكارا والكيتا أصبحا حلفاء إلى الأبد.

ومن "تو" أمر سونجاتا جميع قواده بعقد لقاء فى كاباء، على نهر جوليبا فى بلاد ملك سيبي. لقد أكمل فاكولى فتوحاته، كما أخضع ملك طابون أبناء جبال فوتا. لقد أخضعت أسلحة سونجاتا كل بلاد السافانا؛ ابتداء من واجادو فى الشمال إلى الماندينج فى الجنوب، ومن ميماء فى الشرق إلى فوتا فى الغرب. لقد اعترفت كل البلاد بسلطة سونجاتا وسلك جيش جاتا وادى جوليبا متجها إلى كا - با.

الهوامش:

(١) Diaghan دياغان- المقصود هنا هو مدينة "ديا" Dia: وحسب الروايات كانت مدينة كبار المارابو. حيث حكم الدياوارا - Diaware في "ديا". وهذا الاسم يعنى طبقا لعلم أصول الاشتقاق (أسد ديا).

(٢) حول إقامة الإمبراطور في كيتا، فقد اتبعت رواية ديوما؛ حيث يزعم الكيتا في ديوما أن جدهم الأول، كان أحد أحفاد سونجاتا، غادر كيتا للاستقرار في ديوما Dioma وكانت كيتا إحدى أكبر مدن الإمبراطورية.



حدود تقریبیة لفتوحات سونچاتا



خط سير سونچاتا ابتداء من "ميما"

كوروكان- فوجان (*)

أو

تقسيم العالم

بخروجه من "دو"، بلدة العشرة آلاف بتدقية، وبتقدمه على امتداد وادى النهر، وصل سونجاتا إلى كا - با، حيث تلاقت كل الجيوش إذ دخل فاكولى و"طابون وأنا" محملين بالغنائم إلى كا - با، وكان سيدى كامانجان قد سبق سونجاتا للإعداد للتجمع الكبير الذى يتعين أن يلتئم فى كا - با، تلك المدينة التى تقع داخل أراضى بلاد سيبى.

كانت كا - با مدينة صغيرة، أسسها كل من نياجالان امبالى فالى وهو قنّاص من سيبى، وسونومبا تراورىه Sounoumba Traoré صياد السمك. وكانت كا - با تنسب دائما إلى ملك سيبى، واليوم نجد الكيتا فى كا - با، إلا أن الكيتا لم يأتوا إلى هناك إلا بعد سونجاتا (١). وكانت كا - با تقع على الشاطئ الأيسر لنهر جوليا، وعبر كا - با يمضى الطريق إلى ماندينج القديمة.

Kouroukan- Fougan (*)

وفى شمال كا - با تمتد بقعة مضيئة واسعة (فرجة) تلك هي فوغا، حيث كان يتعين أن يلتئم اجتماع المجلس الكبير، وبعد أن أمر الملك كامانجان بتنظيف كل البقعة، أعدت لذلك منصة كبيرة. وحتى قبل وصول سونجاتا، توافدت الوفود من كل الشعوب المهزومة إلى كا - با. وبنيت الدور على عجل لاستقبال كل هؤلاء الناس. وحينما اجتمعت كل الجيوش، توجب إقامة المعسكرات فى السهل الكبير الواقع بين النهر والمدينة. وفى اليوم المحدد نظمت القوات فى المكان الفسيح المعد لها، وكما حدث فى سيبى فقد كان كل شعب قد اجتمع حول راية مليكه. وكان سونجاتا قد لبس ملابس ملك عظيم مسلم، وقام بلا فاسيكه البارع فى الاحتفالات، بترتيب جلوس الحلفاء حول الكرسى الكبير لجاتا، كان كل شىء فى مكانه: فالمشاة الذين شكلوا نصف دائرة كبيرة، تحف بها السهام، ظلوا ساكنين بلا حراك، أما وفود الشعوب فقد استقروا تحت المنصة، وساد صمت كبير. وتوجه بلا فاسيكه - الذى كان على يمين سونجاتا والذى كان قد تمنطق قوسه الكبير- إلى الجمهور قائلا: "اليوم يسود السلام كل البلاد، ويجب أن يكون كذلك دائما!".

- رد الجمهور: آمين^(٢)، واستطرد البشير:

- أحدثكم أيتها الشعوب المجتمعة: إليكم يا أهل ماندينج، أنقل لكم تحية ما غان سونجاتا. وتحية لكم يا أهل "دو"، وأنتم لكم تحية يا أهل طابون، وتحية إليكم يا أهل واجادو، وتحية لكم يا أهل ميمبا

وتحية لكم يا أهل قبيلة فاكولي وتحية إلى المحاربين البوبو، وأخيرا تحية إلى أهل سيبي وكا - با، يقول سونجاتا لكل الشعوب المجتمعة: "سلاما" أرجو أن تلمسوا لى العذر إذا كان حدث بعض السهو، إتنى أقف متأثرا أمام هذا الحشد المجتمع.

"أيها الجمع، هانحن، وبعد سنوات من الاختبارات الشاقة، نجتمع حول منقذنا، مع مؤسس السلام والنظام، من المشرق للمغرب، من الشمال للجنوب. لقد أرسيت أسلحته الظافرة السلام فى كل مكان، أنقل لكم تحيات قاهر سوماؤرو، ماغان سونجاتا، ملك ماندينج.

واحتراما للتقاليد، يتعين علىّ أولا أن أتوجه إلى مضيفنا كامانجان ملك سيبي. يا كامانجان، يا ملك سيبي، سونجاتا يحييك ويعطى لك الكلمة".

ونهض كامانجان، الذى وجد نفسه جالسا بالقرب من سونجاتا، ونزل من فوق المنصة، وامتطى جواده، واستل سيفه صائحا:

- أحبيكم جميعا، يا محاربى ماندينج، ودو، وطابون، وميما، وواجادو، وبوبو، وفاكولى، أيها المحاربون. لقد عاد السلام إلى ربوع أوطاننا، أرجو من الله أن يحفظه لنا على الدوام.

- رد المحاربون والجمهور بقولهم آمين، وتابع ملك سيبي.

- على الأرض يعانى البشر لبعض الوقت ولكن ليس إلى الأبد، ونحن كما ترون فى نهاية المحن القاسية، نحن فى سلام: حمدا

لله على ذلك، لكننا ندين بهذا السلام لرجل، فيفضل شجاعته وبطولته وبأسه، عرف كيف يقود قواتنا إلى النصر.

"فمن منا، قد جرؤ، وحدد، على مجابهة سومأورو؟"

نعم. كنا جميعا جبنا، فكم من المرات دفعنا له الجزية! فالسفيه كان يعتقد أن كل شيء مباح له! فأية أسرة لم تتسربل بالعار بفعل سومأورو؟

لقد خطف بناتنا ونساءنا، وكنا أكثر جبنا من النساء. لقد مضى في سفه حتى إنه اختطف امرأة ابن أخيه فاكولي! كنا مدمرين ومهانين أمام أطفالنا. وهكذا وفي وسط هذه المحن تغيرت أقدارنا فجأة، أشرقت شمس جديدة على الشرق! فقد أحسنا بأننا رجال بعد معركة طابون، وأدركنا أن سومأورو كان كائنا بشريا، وليس تجسيدا للشيطان، لأنه لم يكن ليهزم قط. لقد جاعنا رجل، كان قد سمع أنيننا، وجاء لنجدتنا، مثل والد يرى ابنه وهو يبكي، هذا هو الرجل: ماغان سونجاتا، الرجل ذو الاسمين الذي أنبأنا به الأرباب.

"يا ابن سوجولون! إليك أتوجه الآن. أنت يا ابن أخت محاربي "دو" البواسل، ومن الآن، فمناك أتسلم مملكتي لأنتى أعترف بك كملك، وأنا وقبيلتي نضع أنفسنا بين يديك. أحبيك يا قائدنا الأعظم، أحبيك يا ملك الملوك^(٢) أحبيك يا مانسا".

كان الهتاف الفرح الذي استقبلت به هذه الكلمات من القوة حتى إنه يُسمع لهذه الضجة الهائلة صدى يتضاعف لاثنتي عشر مرة. أما كامانجان فقد غرس رمحه في الأرض بيد قوية أمام المنصة، وقال:

"يا سونجاتا، هذا رمحي، إنه لك!"

ثم صعد وجلس في مكانه، بعد ذلك وقف ملك ثم تلاه آخر من الاثني عشر ملكا، وهم ملوك بلاد الشمس المشرقة في السافانا، وأعلنوا بدورهم سونجاتا، مانسا "ملكا"، وغرس اثني عشر رمحا ملكيا أمام المنصة. كان سونجاتا قد صار إمبراطورا، وأعلنت طبلة نياني العتيقة للعالم أن بلاد السافانا قبض لها ملك فريد. وحينما توقفت الطبلة الإمبراطورية عن الرنين، استأنف بلا فاسيكيه، أستاذ الاحتفالات العظيم، الكلام، بعد الهتاف الحماسي وترحيب الجمهور. قائلا:

- يا سونجاتا، يا ماغان سونجاتا، يا ملك ماندينج، باسم اثني عشر من ملوك البلاد المشرقة، أحبيك يا مانسا! وهنا هتف الجمهور:

واسا.. واسا.. آبي

ووسط مثل هذا الفرح، ألف بلا فاسيكيه اللحن العظيم "نياما" الذي أنشده الرواه أيضا:

نياما نياما نياما

أنت ملجأ الجميع
الجميع.. يطلبون اللجوء إليك..
وأنت يا نياما^(*)
أنت لا تطلب اللجوء لأحد..
الله وحده يحفظك! ^(١).

بدأ الاحتفال، كان هناك موسيقيون من كل أنحاء البلاد.
وبالتناوب أتى كل شعب يقدم نفسه أمام المنصة، تحت نظرات هادئة
من سونجاتا، ثم بدأوا في رقصات المحاربين: اصطف الجنود من
جميع البلاد ستة صفوف وسط صلاصة عظيمة للرماح والأقواس
المتراصة، وكان قادة الحرب يمتطون خيولهم. أما المحاربون فقد
وقفوا في مواجهة المنصة العملاقة، وبإشارة من بلا فاسيكيه استهل
الموسيقيون المحتشدون إلى يمين منصة الحفل، وهدرت تام تام
الحرب القوية، وكانت الآلات تطلق ألحانا صاخبة فيما كان صوت
الراوى يضبط الإيقاع للجمهور لينشدوا للقوس فقد تقدم رماة السهم
مثل ضباع الليل، حاملين رماحهم فوق رؤوسهم، أما رماة السهم من
طابون وواجادو فكانوا يسرون بخطى صامتة كمن يترصد صيدا
خلف الأدغال، وفجأة كانوا ينهضون ويرمون الأعداء الوهميين
بالسهم. وأمام المنصة الكبيرة قام قادة الحرب، بتنفيذ خطوات
راقصة بخيولهم تحت نظر مانسا، وكانت الخيول - التي قهرها

(*) الناياما Niama تعنى محليا حشائش السافانا (المترجمة).

الهمز والنكر. تصهل، وتشب: يجثون ثم ينهضون، وحققوا استدارات صغيرة بل كانوا يضربون الأرض بسنابكهم. وأنشد الحاضرون المتحمسون لحن القوس، كانوا يصفقون بأيادهم كما كانت أجسام المحاربين التي تتصيب عرقاً، تلمع تحت أشعة الشمس، بينما ينتزع منهم الإيقاع الصاخب للتام - تام صيحات حادة. وسرعان ما استعد المكان لسلاح الفرسان وهو السلاح المفضل لدى جاتا، وكان فرسان ميماء يقفون برماحهم في الهواء ثم يمسكون بها وهي طائرة، مطلقين صيحات مدوية. لقد ارتسمت على شفاه جاتا ابتسامة الرضا، كان مسروراً لرؤية خيالاته يناورون بكثير من الرشاقة والمهارة. وفيما بعد الظهر غير الاحتفال من مظهره: فقد بدأ باستعراض للأسرى والغنائم وكانت الأيدي مغلولة إلى الظهر، مصفوفين في ثلاثة صفوف، وأدخل الأسرى السوسو في الدائرة الكبيرة، وقد حُلقَت رءوسهم جميعاً، وداروا داخل الدائرة، ومروا من أمام المنصة: وقد غضوا الطرف. وكان الأسرى البؤساء يمشون ببطء متناقلين تحت سباب الجمهور المنفعل بشدة. وجاء خلفهم الملوك الذين ظلوا أوفياء لسوماؤرو، والذين لم يشاءوا الاستسلام، وهؤلاء أيضاً قد حُلقَت رءوسهم. لكنهم كانوا يمتطون جيادهم؛ حتى يتمكن الجميع من رؤيتهم. وأخيراً جاء سوسو بلاءً، الذي كان قد وضع في وسط تماائم وتعاويز أبيه. كانت التماائم محملة على الحمير، وأطلق الجمهور صيحات مدوية من الرعب عند رؤية نزلاء غرفة سوماؤرو

المرعبة، كان يُشار بذعر إلى قدر الثعبان وآلة البالافون السحرية، وبومات ملك سوسو. أما بلّا ابن سومأورو، فقد كان مقيد اليدين على جواد، ولم يجرؤ على رفع عينيه تجاه هذا الجمع الذى كان من قبل يرتعد هلعاً من صيحة واحدة من أبيه، وكنا نسمع من الجمهور:

- لكل إنسان دوره، يا بلّا سوسو -، ارفع رأسك قليلاً، أنت أيها الوقح الصغير!

- أكنتَ تشك أنه سيأتى يوم يا بلّا ستكون فيه عبداً، أيها الشخص الحقيقى!

- انظر لتعاويدك العاجزة، استدعها إذن، يا ابن الساحر!

وحينما كان سوسو بلّا أمام المنصة، أتى جاتا بحركة؛ فقد تُذكر الاختفاء الغامض لسومأورو فى الجبل، صار جاتا مغتماً، لاحظ ذلك راويه بلّا فاسيكيه. وتحدث هكذا:

- إن الابن سيدفع ثمن ما جناه الأب ويمكن لسومأورو أن يشكر الله لأنه مات قبل هذا.

لما انتهى العرض، أسكت بلّا فاسيكيه الحضور: اصطف الجنود، توقفت التام - تام ونهض سونچاتا، وخيم صمت القبور على الساحة، وتقدم المانسا حتى حافة المنصة، وتحدث سونچاتا بوصفه مانسا، كان بلّا فاسيكيه وحده الذى يستطيع سماع صوته لأن المانسا لا يرفع صوته مثل المنادى العام.

- أحيى كل الشعوب المجتمعة هنا. ثم ذكر جاتا كل الناس،
وقال وهو ينزع من الأرض رمح كامانجان ملك سيبي:

- يا ملك سيبي، ها أنا أرد إليك مملكتك، أنت تستحقها
بجدارة. إني أعرفك منذ طفولتنا، إن كلامك صريح واضح مثل قلبك
ودون لف أو دوران.

"أرسخ اليوم وإلى الأبد تحالف الكامارا في سيبي، والكيّتا في
الماندينج، وأن يكون هذان الشعبان ومن الآن شقيقين، فأرض الكيّتا
ستكون من الآن هي أرض الكامارا، وثروة الكامارا ستكون أيضا
هي ثروة الكيّتا.

"لن يوجد كذب أبداً وإلى الأبد بين شخص من الكامارا وآخر
من الكيّتا، وعلى امتداد إمبراطوريتي وفي كل مكان سيكون الكامارا
وكانهم في بلادهم".

وسلم الرمح إلى كاما نجان، فسجد ملك سيبي أمام جاتا، مثلما
يحدث حين يكرمك ملك.

أخذ سونجاتا رمح من "طابون وأنا" وقال:

يا فران كامارا، يا صديقي، أعيد إليك مملكتك، وسيكون
الجالونكي والمانينكا حلفاء إلى الأبد، لقد استقبلتني عندك، وبالمثل
سيحدث في كل بلاد ماندينج، سيُستقبل الجالونكي كأصدقاء. لقد
تركت لك الأراضي التي أخضعتها، سيكبر أبناؤك وأبناء أبنائك من
الآن في بلاط نياني وسيعاملون مثل أمراء ماندينج.

استعاد كل الملوك واحدا بعد واحد ممالكهم من أيدي سونجاتا نفسه، وانحنى كل منهم أمامه مثلما ينحنون أمام مانسا (الملك).

لفظ سونجاتا كل النواهي التي لا تزال تحكم العلاقات بين القبائل. فخصص لكل واحد أرضه، وأرسى حقوق كل شعب، ورسم المحبة بين الشعوب: إذ أصبح من الآن - الكونديه من بلاد دو أعمام الكيتا من العائلة الإمبراطورية. لأن هؤلاء لو تذكروا الزواج المثمر بين ناريه ماغان وسوجولون - فإن عليهم الزواج في "دو"، كما أن التونكارا والسيسيه أصبحوا أبناء عمومة فيما يذكر بدعابة الكيتا، كما أعلن السيسيه والبيريته والتوريه من كبار المارابو في الإمبراطورية، ولم يقصر في حق أي شعب في كوروكان فوجان، وأصبح لكل نصيبه في القسمة.

أعطى سونجاتا مملكة سومو إلى فاكولي كوروما؛ لأن أغلبية قبائلها كانوا مستعبدين أرقاء، فقبيلة فاكولي أي الكوروما Koroma الذين يسميهم الآخرون بالدومبويا أو سيسوكو، تحتكر مهنة الحدادة أي شغل الحديد. كما تلقى فاكولي بالمثل من سونجاتا قطعة من الأراضي الواقعة بين بافين وباقي ويحتفظ كل من الواجادو والميما بملوكهم الذين لا يزالون يحملون لقب مانسا، لكن هاتين المملكتين اعترفتا بسيادة المانسا الأعظم. كما أصبح الكوناتيه في تورون هم الأخوة الصغار للكيتا، وفي سن النضج يمكن أن يُسمى الكوناتيه بالكيتا.

ولما فرغ ابن سوجولون من توزيع الأراضي والسلطة،
استدار ناحية راويه بلا فاسيكيه قائلا:

- أمّا أنت يا بلا فاسيكيه، يا راوى! سأجعلك الرئيس الأكبر
للتشريفات، وسيختار الكيتا منذ الآن رواثهم من قبيلتك، من الكوياتيه.
لقد منحت الكوياتيه حق عمل دعايات على كل القبائل خاصة على
القبيلة الملكية للكيتا.

هكذا تحدث ابن سوجولون في كوروكان فوجان. ومنذ ذلك
الوقت صار كلامه المحترم هو القانون، والقاعدة لكل الشعوب التي
كانت حاضرة في كا - با. لقد قسم جاتا العالم في كوروكان فوجان،
واحتفظ لقبيلته ببلاد بني كيتا، أما الكامارا سكان هذه المنطقة فقد
ظلوا سادة البلاد.

وإذا ذهب إلى كا - با، اذهب لرؤية فرجة الضوء في
كوروكان فوجان، حيث سترى فيها ملعب جولف ليخاد نكري
الاجتماع الكبير الذي شهد تقسيم العالم.

الهوامش:

(١) يُعتقد عموماً أن مدينة كا - با (كانجابا حالياً) كانت واحدة من أقدم أماكن إقامة الكيتا. وتؤكد الرواية المحلية أن الكيتا لم يقيموا فيها إلا بعد سونجاتا، وأن كانجابا أسسها الكامارا من سيبي والتراوريه، وأن الكيتا الذين أقاموا بها قدموا من نياني. والمقصود هنا شقيقين: الشقيق الأكثر شباهاً بمبا كاندا كان قد ترك أخاه في مرحلة ما وراح للإقامة في كا - با وتظاهر مع الكامارا وبالتبعية راحت العديد من الأسر من الكيتا للاستقرار هناك.

(٢) أمينا - أمين (المؤلف).

(٣) ملك الملوك Fama des Fama.

(٤) هذا النشيد هو واحد من الأكثر شهرة مما ألفه بلأ فاسيكيه عن سونجاتا؛ لأنه يترجم فكرة أن ابن سوجولون كان هو الجدار الصلب الذي وجدت خلفه كل الشعوب ملاذها.

وفي أناشيد أخرى نسبت أيضاً لبلا فاسيكيه، كان يقارن على الدوام سونجاتا بالإسكندر (سجلها كيتا فونبا على أسطوانة: وهي أسطوانة "ذاتعة الصيت" وذلك تحت اسم ل.د.م ٣٠٠٨٢ - سونجاتا).

وأنا شخصياً أميل إلى أن أنسب هذه الأناشيد إلى رواة من عصر كانكوموسي (١٣٠٧-١٣٣٢). حقيقة كان رواة هذا العصر

يلمون بالتاريخ العام بطريقة أفضل كثيرا، على الأقل من خلال
الكتابات العربية، ومن القرآن الكريم على وجه الخصوص.

نيسانى

بعد هذا التجمع الكبير، بقى سونجاتا فى كا - با لبضعة أيام
أيضاً، كانت أيام عيد للشعب. وكان سونجاتا يأمر طوال هذه الأيام
بأن يذبح له بضع مئات من العجول، تتترع من الثروة الطائلة
لسوماؤرو. وكانت بنات المدينة تأتين إلى الميدان الكبير لكا - با،
ليضعن أمام الشرفات الأوانى الكبيرة وبها الأرز واللحم، وكل فرد
يمكنه أن يذهب ليأكل حتى الشبع وينصرف إلى حال سبيله.
وسرعان ما صارت كا - با مأهولة بالناس القادمين من كل صوب
وحذب، تجذبهم سعة العيش، لقد أفرغ عام من الحرب كل مخازن
الغلال، وكل فرد كان يأتى ليأخذ نصيبه من مستودعات ملك سوسو،
حتى أنه يقال إن بعض الأشخاص كانوا خلال إقامة جاتا فى كا - با
أقاموا منازلهم على عين الميدان نفسه كان هذا أجمل فصول العام،
كانوا ينامون الليل فى الشرفات، وعند الاستيقاظ، كانوا يجدون أوانى
الأرز إلى جوارهم. كان هو العصر الذى تغنوا فيه بلحن الرخاء
على شرف سونجاتا:

"لقد جاء

وجاءت السعادة

سونجاتا هنا

والسعادة هنا"

لقد حان الوقت لاسترداد الماندينج مسقط الرأس. جمع سونجاتا جيشه في السهل، فقد قدم كل شعب كتيبة لمصاحبة المانسا إلى نياني وفي كا - با تفرقت كل الشعوب في محبة وفرح للسلام الذي استردوه.

لقد كان يتعين على سونجاتا ورجاله أن يعبروا نهر الجوليا ليخترقوا داخل الماندينج القديمة. وقيل إن كل زوارق العالم أتت للقاء في ميناء كا - با، حيث كان الفصل فصل الجفاف ولم يكن بالنهر مياه كثيرة، فقد حرصت قبائل الصيادين السومونو - ممن كان "جاتا" قد منحهم احتكار المياه - على شكر ابن سوجولون، فجهزت كل الزوارق ووضعتها جنبًا إلى جنب في مجرى نهر جوليا، كي يتمكن جنود سونجاتا من العبور دون أن تبطل أقدامهم.

ولما عبر الجيش إلى الناحية الأخرى من النهر، أمر سونجاتا بأضحيات كبيرة. فقدم أضحية من مائة عجل ومائة جدى، وبها شكر سونجاتا الله بعودته إلى ماندينج.

أعدت قرى الماندينج استقبالا غير مسبوق لماغان سونجاتا. ففي الظروف العادية يقطع الراجل المسافة من كا - با إلى نياني على مرحلتين، أما ابن سوجولون وجيشه فقضوا فيها ثلاثة أيام؛ فقد كان طريق الماندينج ابتداء من النهر، محاطا بسياج من البشر هرعوا من كل صوب وحذب من جميع أرجاء الماندينج. فكل السكان يريدون أن يروا عن قرب ذلك المنقذ. وشاءت نساء الماندينج أن

تترك أثرا عميقا، وفعلن كل ما أمكنهن، ففي مدخل كل قرية قمن
بفرش الطريق بقطع من ملابسهن الزاهية والمتعددة الألوان، حتى لا
تتسخ أقدام فرس جاتا عند دخوله إلى قريتهن، أما عند الخروج من
القرى كان الأطفال- الذين يمسكون بفروع الأشجار المورقة- يحيون
جاتا مهللين:

”واستا.. واستا.. آبي

كان سونجاتا يسير في المقدمة، وكان يرتدى ثياب الملك
الصياد، المكونة من قميص بسيط وسروال لصيق بالجسم، متوشحا
قوسه، وإلى جانبه بلافاسيكيه يرتدى أيضا ملابس العيد الموشاة
بالذهب. ووضع سوسو بلا بين هيئة أركان جاتا وبين الجيش، وسط
تمائم أبيه، فلم يعد مقيد اليدين كما كان في كاسا وكانوا يوسعونه
شتما، فلا يجرؤ الأسير على رفع عينيه على الجمهور المعادي. كان
هناك بعض الأشخاص الجاهزين دائما لاستدراار الشفقة، كانوا
يقولون فيما بينهم:

- كيف أن القدر يتعلق بأبسط الأشياء!

- نعم.. فاليوم الذي يكون المرء فيه سعيدا، هو ذلك اليوم
الذي يكون فيه الأكثر شقاء، ففي السعادة لا يتخيل المرء ما هو
الشقاء.

كانت القوات تسير وهي تغنى لحن القوس الذي تعلمه
الجمهور، كما كانت تتطير أغان جديدة من فم لفم. كانت الفتيات

يقدمن الماء المنعش وبذور الكولا للجنود، وهكذا اكتملت المسيرة
الظافرة عبر الماندينج، أمام "نيانى" بلدة سونجاتا.

كانت مدينة فى حالة خراب، إلى أن بدأ سكانها فى إعادة
إعمارها. لقد هدم جزء من التحصينات، ولا تزال الجدران المتكلسة
تحمل آثار الحريق. ورأى جاتا من أعلى التل مدينة نيانى التى كانت
تشبه مدينة فى حالة موات، كما رأى أيضا سهل سونكارانى، وكذلك
ساحة شجرة البواباب الياقة. أما الناجون من الكارثة فقد مكثوا
مصطفين على طريق الماندينج. وكان الأطفال يلوحون بأغصان
الأشجار، وكانت بعض الفتيات يغنين، أما الكبار فقد كانوا صامتين.

- قال بلا فاسيكيه: كن سعيدا! فأنت الذى ستحظى بإعادة بناء
"نيانى" مدينة آبائك، ولن يقوم أحد بإعادة بناء سوسو من دمارها، إن
الناس سوف يفقدون إمكانية تذكر موقع مدينة سوماورو.

ومع سونجاتا حل السلام والسعادة فى نيانى، وبالحب أعاد ابن
سوجولون بناء مدينته مسقط رأسه. وقد أصلح على الطراز القديم
قصر والده المتداعى، حيث شب. ووفد من كل أنحاء قرى الماندينج
أناس للاستقرار فى نيانى. وكان يتعين هدم الجدران لتكبير المدينة،
وبنيت فيها أحياء جديدة لكل جماعة من الجيش الضخم.

كان سونجاتا قد أبقى أخاه ماندينج بورى فى باجادو جليبا
على النهر. كان ماندينج بورى هو الـ كانكورو- سيغى أى نائب

الملك (المانسا). وكان يشرف على كل البلاد المهزومة. ولما انتهت أعمال إعادة بناء العاصمة، ذهب سونجاتا نحو الجنوب للقتال وإبشير الخوف لدى شعوب الغابة.

واستقبل وفدا من بلاد سانجاران التي استقرت بها بعض قبائل الكونديه، وتحالف معهم رغم أنهم لم يكونوا ممثلين في اجتماع كوروكان فوجان، ووضعوا على قدم المساواة مع الكونديه من بلاد نو.

وخلال عام، عقد سونجاتا اجتماعا جديدا في نياني. كان اجتماعا للأعيان وملوك الإمبراطورية. وذهب الملوك والأعيان من كل القبائل إلى "نياني"، وتحدث الملوك عن إدارتهم للممالك وتحدث الأعيان عن الملوك. أما فاكولي، ابن أخت سوماورو الذي قدم نفسه كمستقل تماما عنه، اضطر إلى الهرب ليتجنب غضب المانسا. فقد صودرت أراضيه، وكانت ضرائب سوسو تصب مباشرة في مخازن نياني، وهكذا كان سونجاتا يجمع حوله كل عام الملوك والأعيان. وساد العدل في كل مكان، لأن الملوك كانوا يخشون أن يشي بهم أحد في نياني.

لم يستثن أحد من عدل سونجاتا، لقد اتبع قول الله، كان يحمي الضعيف في مواجهة القوى، وكان الناس يمشون لعدة أيام ليأتوا إليه يطلبون عدله، وتحت شمسهِ يُكَافَأُ العادل ويُعاقَبُ الشرير.

وفى هذا السلام المسترد، عرفت القرى الرخاء، فمع سونجاتا كانت السعادة قد حلت بكل العالم. فقد أحاطت القرى حقول فسيحة من الذرة البيضاء والأرز والقطن والنيلة، فمن كان يعمل كان لديه دائما ما يمكنه من العيش.

وكل عام كانت القوافل الكبيرة تحمل الموديه Moudé^(١) إلى "تيانى"، وكان يمكن الذهاب من قرية لأخرى دون خوف من قطاع الطرق، فقد كانت تقطع اليد اليمنى للشارق، وإذا عاد مرة أخرى للسرقة يوضع فى الحبس.

لقد أنشئت مدن جديدة وقرى جديدة فى الماندينج وغيرها، وكثر الدجولا أو التجار. وعرف العالم معنى السعادة فى ظل حكم جاتا.

هناك ملوك أقوياء لقوتهم العسكرية، ويرتعد الجميع أمامهم، لكن بعد موتهم لا يتناولهم الحديث إلا بالسوء، وغيرهم لم يفعلوا خيرا أو شرا وبعد مماتهم يكونون طى النسيان. وآخرون غيرهم مهابون لأن لديهم القوة، ويعرفون كيف يستعملونها وهم محبوبون لأنهم يحبون العدل؛ ويُنسب سونجاتا إلى هذا الفريق إنه مهاب ومحبوب أيضا. كان أبو الماندينج قد وهب العالم السلام، وبعده لم يعرف العالم فاتحا عظيما مثله لأنه كان الفاتح السابع والأخير.

ومن قرية والده الصغيرة، أقام عاصمة إمبراطورية، وكانت "تيانى" قد أصبحت "سرة" البلاد، وفى البلاد النائية كانوا يتحدثون عن

"تيانى"، وكان الأجانب يقولون: "إنها لكذبة كبرى أن يقول أحد إنه أت من الماندينج"، لأن الماندينج كانت بلدا بعيدا لكثير من الشعوب.

كان الرواة؛ المتحدثون الجذليون، يقولون عندما يمتدحون "تيانى" والماندينج:

- إذا أردت ملحا، اذهب إلى تيانى! لأنها مخيم قوافل بلاد الساحل.

"إذا أردت ذهباً، اذهب إلى تيانى! لأن كل من بوريه، وبامبوجو وواجادو يعملون من أجل تيانى".

"إذا أردت أقمشة جميلة، اذهب إلى تيانى! لأن الطريق إلى مكة يمر بنيانى.

إذا أردت سمكا اذهب إلى تيانى! فهناك يبيع صيادو ماوتى وجني مغانهم.

"إذا أردت لحما، اذهب إلى تيانى! بلد كبار القناصين وهى أيضا بلاد العجل والخروف.

"إذا أردت أن ترى جيشا، اذهب إلى تيانى! فهناك توجد القوات المتجمعة للماندينج.

"إذا أردت أن ترى ملكا عظيما، اذهب إلى تيانى! فهناك يقيم ابن سوجولون الرجل ذو الاسمين".

كان هذا ما يتغنى به أساتذة الكلام.

ومن بين المدن الكبرى للإمبراطورية، يتعين أن أنكر كيتا،
أى مدينة المياه المقدسة، والتي أصبحت العاصمة الثانية للكيثا.

وسأذكر طابون التى اختفت، تلك المدينة ذات الأبواب
الحديدية، ولن أنسى دو Do، ولا كرى Kri، أى وطن سوجولون،
تلك المرأة العجل.

سأذكر أيضا كوكوبا، وباتامبا، وكامبانيجا ومدن الجنود
المشاة، سأذكر مدينة دياغان، وميما مدينة كرم الضيافة، وواجادو
التى كان يحكمها حفيد نو القرنين. وكم من الخراب المتراكم، وكم
من المدن التى اختفت!

وكم من وحشة مسكونة بروح ملوك عظام!

فأشجار القابوق والباوباب المتفردة التى تراها فى الماندينج
هى الآثار الوحيدة للمدن التى اختفت.

الهوامش:

(١) موديه Moudé تحريف في المالينكيه للكلمة العربية "المدّ Mudd " وتعنى مكيالاً للحيوب، وهو قياس شرعى حدده النبى. ولما كانت الضريبة تدفع عينيا، فإنها تقدر "بالمد" Mudd، وأخيرا فاللفظ حدد الضريبة بلا زيادة. وكان مدّ Mudd الأرز يزن من ١٠ إلى ١٥ كيلو جراما (محتوى سلة أرز).

الماندينج الخالدة

كم من الخرائب تراكت، وكم من عظماء قُهرُوا، لكن الوقائع التي تحدثتُ عنها مضت منذ وقت طويل، كان مسرح كل ذلك هي بلاد الماندينج، لقد توالى الملوك تلو الملوك وظلت الماندينج هي نفسها.

فبلاد الماندينج تحفظ أسرارها غيرة عليها، إنها أشياء سينكرها من يدنس الحرمات دائماً، لأن الرواة، الذين هم موضع الأسرار، لا يفشونها مطلقاً: ويرقد ماغان سونجاتا، آخر غزاة الأرض، ليس بعيداً عن "تياني" نياني" أي في بالاندوجو، أي مدينة السد (١).

ومن بعده، حكم العديد من الملوك والمانسا في الماندينج، كما قامت مدن أخرى واختفت. إن الحاج مانسا موسى، ذو الذكرى الشهيرة وحبیب الله، بنى في مكة منازل للحجاج الماندينج، إلا أن المدن التي أسسها اختفت جميعاً مثل: كارانينا، جيجيفي، وبورون كونا ولم يبق أثر لهذه المدن.

كما أن ملوكاً آخرين وصلوا بـ الماندينج أبعد كثيراً من حدود جاتا، وهما مانسا سامانكا وفاديفا موسى Fadima Moussa، ولا أحد منهم ماثل من جاتا (٢).

كان ماغان سونچاتا فريدا، لم يضاهه أحد في زمانه، وبعده لم يكن لأى شخص أن يطمح في التفوق عليه. لقد ترك دائما بصمته على الماندينج، أما تمانمه^(٣) "dio" فهي التى تقود الرجال في سلوكهم. فالماندينج خالدة.

لكى تقنع بما قلت، اذهب إلى الماندينج: ستجد في تيجان Tigan، الغابة العزيزة على سونچاتا، لأنك سترى فيها واقى الصدر الخاص بفاكولى كوروما، اذهب إلى كيريكورونى بالقرب من نياسولا سترى فيها شجرة تخلد مرور سونچاتا في هذه الأماكن، اذهب إلى بانكوماننا على نهر جوليبا، سترى فيها الآلة الموسيقية لسوماؤرو، هذه الآلة تسمى بالا - نينترى - اذهب إلى كا - با سترى هناك فرجة كوروكان فوجان حيث عقد التجمع الكبير الذى سن دستور إمبراطورية سونچاتا، اذهب إلى كيرينا بالقرب من كا - با، سترى فيها الطائر الذى أعلن الكلمة الفاصلة لسوماؤرو، فى كيلا بالقرب من كا - با ستجد طبول جولوفين مانسا الملكية، إنه ملك السنغال الذى هزمه جاتا. لكن أيها التعس لا تحاول أبدا أن تكشف السر الذى يخفيه الماندينج عنك، لا تذهب أبدا لإقلاق الأرواح فى راحتها الأبدية، لا تذهب أبدا إلى المدن الموات لتتقب عن الماضى، لأن الأرواح لا تصفح أبدا! لا تبحث قط عن معرفة ما لا يجب معرفته.

يا رجال اليوم.. كم أنتم صغار إلى جانب أجدادكم، صغار في العقل، لأنكم بالكاد وقفتُم على معنى كلامي. إن سونجاتا يرقُد بالقرب من "تياني نياني" لكن روحه عاشت خالدة.. وسيظل الكيتا إلى اليوم ينحنون أمام الحجر الذي يرقُد تحته أبو الماندينج.

أما أنا فلكي اكتسب معرفتي هذه فقد قمتُ بجولة في الماندينج، حيث عاينتُ في كيتا للجبل الذي ترقد فيه بحيرة المياه المقدسة، وتعلمتُ في سيجو تاريخ ملوك دو وكري، وفي فاداما في الهامانا استمعتُ للرواة الكونديه وهم يحكون كيف أن الكيت-ا والكونديه والكارمارا غزوا وورولا^(٤). وفي كيلا، قرية الأساتذة العظام، تعلمتُ أصول الماندينج، وهناك اتقنتُ فن الكلام. وفي كل مكان استطعتُ مشاهدة وفهم كل ما علمه إياي أساتذتي. لقد أدبت اليمين بين أيديهم بأن أعلم ما يجب أن يُعلم، وأن أصمت أمام كل ما هو جدير بالصمت.

الهوامش:

(١) هنا لم يشأ جيلى مامادو كوياتيه أن يذهب بعيداً، حيث هناك العديد من الروايات التى تشيع حول نهاية سونجاتا.

ويقدم دولا فوس روايتين: الأولى تقول: إن سونجاتا قتل بسهم أثناء احتفال عام فى نيانى، والثانية والشائعة بدرجة عظيمة فى الماندينج، والتى يحتمل تحققها بسبب وجود مقبرة جاتا بالقرب من السانكارانى، وحسب هذه الرواية الثانية فسونجاتا كان قد غرق فى السانكارانى، ودفن بالقرب من المكان نفسه الذى كان قد غرق فيه.

لقد سمعت هذه القصة الأخيرة من فم العديد من أصحاب المأثور. ففى أعقاب أية ظروف من الحل والترحال لقي سونجاتا الموت فى المياه؟ هذا هو السؤال الذى يتوجب علينا أن نجد له جواباً.

(٢) ذكر جيلى مامادو كوياتيه هنا عدة ملوك للماندينج، ولم يكن الحاج منسا موسى سوى كانكو موسى الشهير (١٣٠٧-١٣٣٢) الذى صار مشهوراً إلى الأبد، بسبب الحج الشهير عام ١٣٢٥ (انظر ملك الحج). وينسب تراث ديوما إلى كانكو موسى تأسيس مدن عديدة اختفت اليوم.

(٣) ديو Dio: الديو هو شىء مُحَرَّم، أمر به جدّ أول، واللفظ يشير بالمثل إلى التماث.

(٤) الرواة التقليديون يسافرون كثيرا قبل أن يصبحوا بيلين- تيجى Belen- Tigui أى "أساتذة الكلام". بالمالينكية. ويتكون هذا التعبير من "بيلين Belen" وهو اسم جذع من الخشب زرع فى وسط الساحة العامة، الذى يرتكز عليه الخطيب ويتحدث للجمهور، أما تيجى Tigui فيراد بها الأستاذ. هناك العديد من المراكز الشهيرة من أجل دراسة التاريخ مثل: فاداما فى الهامانا (كوروسا) وهى على النيانندان فى مواجهة بارو التى تقع على الشاطئ الأيمن، وبالأخص كيلا، أى مدينة "أصحاب المأثور"؛ دياباتيه القريبة من كانجابا (كا - با) (السودان).

وممادو كوياتيه هو من قرية جيليبا كورو فى الديوما (جنوب سيغيرى)، وهى مقاطعة يسكنها الكيتا Keita الذين قدموا من كيتا Kita فى نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر.
(انظر أطروحة دبلوم الدراسات العليا الخاصة بى).

المؤلف فى سطور:

جبريل تمسیر نیان

- أستاذ التاريخ بجامعة كوناكرى.
- كتب فى تاريخ الحضارات والإمبراطوريات الأفريقية، وذلك من خلال إشرافه على بعض أجزاء موسوعة اليونسكو عن تاريخ أفريقيا العام، وحرر الجزء الرابع منها.
- له عدة مؤلفات معروفة: تاريخ أفريقيا الغربية، السودان الغربى - وعصر الإمبراطوريات الكبرى- كتب أيضا نصوصا مسرحية وأصدر: حكايات الأمس واليوم.

المترجمة فى سطور:

توحيدة على توفيق

- خريجة قسم الفلسفة جامعة القاهرة ١٩٦٧.
- دبلوم الإعلام والعلاقات العامة - كلية الإعلام - جامعة القاهرة.
- باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات، ثم المنظمة العربية لحقوق الإنسان.
- سكرتيرة تحرير مجلة "أفريقيا" (دار المستقبل العربى) - ١٩٨٦ - ١٩٨٧.

المراجع فى سطور:

أمنية رشيد

- أستاذ الأدب الفرنسى والمقارن بكلية الآداب جامعة القاهرة.
- لها العديد من الدراسات النقدية بالعربية والفرنسية، أبرزها كتاب تشظى الزمن فى الرواية الحديثة.
- ترجمت إلى الفرنسية رواية الصبار لسحر خليفة (بالاشتراك مع جمال الدين بن شيخ) ووردية ليل لإبراهيم أصلان (بالاشتراك مع أرليت تاديه) .
- ترجمت من الفرنسية إلى العربية رواية المكان لأنى أرنو (بالاشتراك مع سيد البحرأوى) والأشياء لجورج بيريك (بالاشتراك مع سيد البحرأوى)، إلى جانب مجموعة من المقالات جمعها كلود فاديه تحت عنوان الأيدولوجيا (بالاشتراك مع سيد البحرأوى).

المقدم فى سطور:

حلمى شعراوى

- خريج قسم الاجتماع - جامعة القاهرة ١٩٥٨.
- باحث متخصص فى الاجتماع السياسى والثقافة الأفريقية.
- مدير مركز البحوث العربية والأفريقية ١٩٨٧.
- خبير سابق للعلاقات الثقافية الأفريقية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦/٨٢.
- أستاذ الفكر الأفريقى بجامعة جوبا - ٨١/٨٠.
- رئيس أسبق للجمعية الأفريقية للعلوم السياسية.
- اشتغل وكتب عدة كتب ودراسات عن التراث الأفريقى العربى، وجدل الثقافات الأفريقية والعربية.

ومن أهم أعماله:-

- * العرب والأفارقة وجهًا لوجه.
- * أفارقة وعرب فى مهب الريح.
- * اللغات الأفريقية بالحرف.

التصحيح اللغوي: صفاء فتحي
الإشراف الفني: حسن كامل



أصغى جبريل تمسير نيان هنا لأفريقيا التقليدية فالأقوال التي قدمها لنا هي أقوال الرواة، هنا نتعلم تاريخ جد الماندينج العظيم ذلك الذى تفوق بمآثره على الإسكندر. إنه تاريخ ابن العجل، وابن الأسد: "سونجاتا" أى الرجل ذو الأسماء المتعددة والذى لم تقدر الرقى السحرية المؤذية على المساس به.

جبريل تمسير نيان، هو عالم تاريخ عظيم فى أفريقيا السوداء، كرس نفسه لدراسة الحضارة السوداء، وللأبحاث فى ميدان العلوم الاجتماعية، بالإضافة إلى المؤلفات المختلفة، والمسرحيات والمقالات التى صدرت عن بريزنس أفريكين:

- تاريخ أفريقيا الغربية.
- السودان الغربى فى زمن الإمبراطوريات الكبرى.
- حكايات الأمس واليوم.

